الميلاد

رواية

تأليف

امنية صلاح

obeikandl.com

طبعة ٢٠١٧

صلاح، امنية

الميلاد : رواية/ امنية صلاح – .- الجيزة: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامي، ٢٠١٦ .

٢٤٨ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٩ ٤٦٧ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

oberikanal.com

الميلاد

رواية

تأليف

امنية صلاح

obeikandl.com

الكتاب : الميلاد

المؤلف : امنية صلاح

الغلاف : أحمد الصباغ

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

atlas@innovations-co.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة

المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٦/٢١٥٦٢

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٤٦٧-٩

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٧

obeikandi.com

إهداء

إلى تلك الفتاة ..

التي أعادت اكتشاف ذاتها وعالمها من جديد.

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء خاص

إلى كـــلِّ عينٍ تهـــــابُ الدمـــــــوع ..

إلى كـــلِّ روحٍ تهـــــابُ العطـــــــاء ..

obeikandl.com

obeikandl.com

- في ليلة دافئة من ليالي مارس تجلس وقت الغروب في شرفة غرفتها المطلة على النيل مباشرة..

لا يفصل بينها وبين مياه النهر سوى أمتار قلائل..

سرحت روحها في القرص المتوهج الذي قرر أن يغفو قليلاً وينهي وجوده في تلك المدينة ليعود ويشرق من جديد في مكان آخر ..

كم كانت تشبهها الشمس في تلك الليلة بالذات..

تأملته وقد لطخ وجهه بلون الدم وهو يتوارى خلف الجبل المهيب في خجل .. أم في حزن!

ليترك جزءًا من بقاياه على هيئة شفق أحمر ما زال رافضًا أن يترك عرشه السماوي بسهولة.

كيف لم تلحظ حزن الشمس وقت الغروب من قبل..!

تنظر ساهبة إلى صفحة الماء بعينين لا تريان..

يا أوضة زغيرة زغيرة فيها الحب تلاقيت
أوسع من دنيا كبيرة وأغلى من ميت بيت
تعبانة وبدي حاكيك.. حاكيني الله يخليك
نقلني عا شبابيك الليل وعسطوح الدار

تردد الصوت الفيروزي في **أذنيها** عبر جهاز الـ **I pod** ، فحانت منها نظرة عفوية على هاتفها المغلق ..

وانبعث شبح ابتسامة يائسة على جانب فمها .. سرعان ما اختفت حين لاحظت أن الباخرة قد بدأت في التحرك بالفعل..

انقبض قلبها بقوة وضغطت على زر الـ stop ليسكن الصوت الفيروزي قليلاً.. بعد أن بدأ الهواء يداعب شعرها البني الناعم.. الذي يحيط بوجه كمثريّ أبيض البشرة مرتفع الوجنتين وعينين عسليتين واسعتين ذوي رموش طويلة مرفوعة، من تحتهم أنف دقيق كحبة لوز وشفتان مكتنزان لم تطليهما اليوم باللون الأحمر القرمزي الذي تفضله، وثمة نمش محبب للنفس مبعثر هنا وهناك على بشرتها الصافية.

لم يكن جمالها صارخًا .. كان جمال من الطراز الذي لا يلفت انتباهك من الوهلة الأولى، ولكن ما إن تحادثها لدقائق معدودة وترى ابتسامتها وبريق عينيها حتى تدمنها .. فلا تستطيع منها شفاء.

أغلقت شرفتها واستلقت على الفراش الصغير الذي ينتصف الغرفة، التقطت الكراس الغريب الملقى بإهمال بجانبها.. علها تجد فيه ما يؤنس وحدتها في تلك الليلة الطويلة.. والتي تعلم أنها لن تكون – في مرورها – يسيرة.

بنفسٍ غير عابئة فتحت أول صفحة لتجد تلك السطور أمامها:

«وأخيرًا اتخذت القرار..

لن تعلمين قط كم التردد الذي راودني قبل كتابة تلك الأسطر، ولكنني سأفعلها من أجلك أنتِ يا عاليا فأنا - يا صغيرتي - .. لست ذاك الوحش المتجهم دائمًا، لست متبلد الإحساس كما تظنين دومًا كنت تسألينني: - ألم تبك في حياتك أبدًا؟

ودومًا كنت أجيبك: - «الرجال لا يبكون».

ولكنني اليوم - واليوم فقط - قررت أن أعترف لكِ ..

- «بلى، يبكِي الرجال».

وحينما يبكي الرجل تنزل دموعه لتُحدث شرخًا بائنًا في قلبه كألف سهم مسموم ويكون الإحساس بداخله قد وصل إلى منتهاه..

بكيت يا ابنتي..

وتعبت

عانيت في حياتي الكثير ولم أجد لدموعي ثمنًا، إلى أن جئت أنتِ، وحملتك بين يديّ قطعة لحمٍ حمراء صغيرة .. نزلت دموعي لتبللك وأنت ما زلتِ في عمر اليوم..

يومها قررت قرارًا قاسيًا.. أنا لن أبكِ ثانيةً أبدًا

وأصبحت دمعتي كالزمردة النفيسة ووفيت بعهدي لنفسي .. أقنعتها بأنه لولا دموعي التي ذرفتها ما زادتني الحياة يأسًا على يأسي وهمًّا على همي..

هكذا يقتضي قانون الجذب الكوني..

كنت قد قرأت كتابًا يقول بأن الإنسان يجذب ما يشعر، بما يفكر فيه معظم الوقت.

فكلما شعر بالألم .. هيأت له الحياة مزيدًا منه، وكلما بالغت في شعورك بالظلم والاضطهاد ..أذاقتك الحياة ألوانًا منه ،وكلما شغلت تفكيرك في الإحساس بالوحدة.. بالغ الكون في إشعارك بها من هنا آمنت أن في بكائي ومشاعري السلبية جذبًا لمزيد من الأفكار السيئة والضعف والضعف (وأنا لن أضعف بعد أن وهبني الله إياكِ ..

هكذا حاولت إقناع نفسي..

وهكذا اقتنعت

ليس هذا فحسب بل وأقنعتها..

بأنني لا يجب أن أسمح للزمان باستضعافِك لساعة واحدة .. لذا ما إن بدأت في الفهم والاستيعاب حتى أصبحت أعاقبِك بشدة على كل شيء .. وأي شيء..

أنشأتكِ على ألا تُترجم انفعالاتِك أبدًا إلى دموع في عينيك.. علمتكِ جمود القلب والصلابة.. أن تكوني كالماكينة لا يحزنكِ شيء ولا تهتزين طربًا لخبر..

وكنت أكافئكِ كلما أرى تلك النبتة الصغيرة التي زرعتها قد بدأت تكبر بداخلك وتلوح لي في تصرفاتك.

وأنتِ .. كم كرهتِ هذا.. !

كنت أنا قد كلفت خالتكِ التي تعمل كأستاذ مساعد بإحدى الجامعات الإنجليزية بمجرد تخرجك من الجامعة بأن تحاول التحصل لكِ على منحة لإكمال الدراسات العليا بإنجلترا .. ورغم رفضكِ في البدء إلا أنكِ قبلتِ بالأمر ..

بعد هذا اليوم الكئيب..

لا أدري ما الذي دار بخلدِك في تلك اللحظات..وكيف صور لكِ خيالِك ذاك الأب المتبلد الذي يدفع ابنته دفعًا إلى السفر في بلاد الضباب دون أن تهتز له شعرة .. وعندما وجدتي إصرارًا مني قلتِ جملتكِ التي أذكرها كاملة:

«أريدك أبًا حنونًا.. لا صنمًا متبلد الإحساس».

ولم أدر بنفسي إلا بعد أن صفعتكِ بكل ضعفي.. لأول مرة في حياتي

لم أفهم كلامك وقتها إلا كونه إهانة يا عاليا.

يشهد الله .. أنني ما كنت أريد إلا أن أزج بكِ في الحياة العملية .. لتختبر صلابتكِ قسوتها .. أردت لكِ التحصل على أعلى الدرجات العلمية من تلك الجامعة التي قامت بتخريج ستة وعشرين رئيسًا لوزراء بريطانيا وثلاثون قائدًا دوليًا من قبل، من أكسفورد.

وها أنتِ ذا على وشك الحصول على درجة الماجيستير في العلاقات الدولية .. بعد إجازتك القادمة في مصر بعد شهر..

وقد خطيت لك تلك السطور لتصطحبك إلى بلاد الضباب لتقرئينها على مهل.. وتتفهميها نعم بكيت..

أتذكر تلك المواقف التي لم أستطع فيها السيطرة على دموعي ..

أعلمها جيدًا،، سبع عشرة مرة.. ليس ست عشرة ولا ثماني عشرة.. أحصيها عددًا تخيلي!

بل إنني أذكر ذلك الانفعال الذي اجتاحني في كل موقف منذ المرة الأولى وأنا طفل لم أتجاوز السادسة من عمري إلى أن صرت رجلًا مسؤولًا عنكِ ..

openkandil.com

تعالي لنبدأ بالدمعة الأولى»

مذكرات إذن!

تصفحَتِ الوريقات سريعًا لتصل إلى الصفحة الأخيرة، كعادتها كلما ترددت في قراءة أي رواية..

«..سأربيك على القوة والكبرياء، لن أسمح لكِ بالبكاء .. سأجعل منكِ فتاة كالرجل في قلبها ، تهابها المصائب وتتحدى بعزتها تحوّل الأيام.

كنت أخاطبك دون أن أتكلم.. وكنتِ تنظرين إليّ وكأنكِ تسمعين عاملتك بقسوة وأجبرتكِ أن تتخذينها شعارًا لكِ وكنتِ في البداية تسايرين إرادتي ظاهريًا ثم بدأتِ تتطبعين وتقسين مشاعرك تدريجيًا .. وبدأ التبلد يزحف بداخلِك ليجنّب كل ما هو جميل ويحل محله .. وإن كنتِ في مرات تثورين وتغلبكِ عفويتُك ورقتك وطبيعتك...

وكان يوم الصفعة من تلك المرات القلائل أقرّ بأنني كنت مخطئًا وما أردت إلا أن أعتذر عما بدر.. عن سنوات طوال من الجفاء .. أعلم أنه لا عذر لي فيما فعلت بك.. ولكن صدقيني يا عاليا، لم يكن هذا أنا .. كان خوفي عليكِ من الأيام وحسب.. سأقولها لكِ.. انسي ما كان مني.. انسي كل ما تربيتي عليه من غلاظة القلب..وابكي....».

هنا توقّفت عن القراءة وأقرّت بمدى حماقتها عندما ادعت ملكيتها لذلك الشيء، فقط من باب الفضول ..

كانت تمنّي نفسها بقراءة مثيرة لرسالة غرامية ضلت الطريق إلا إليها، ولكن أن تقرأ مذكرات أحدهم.. فهذا هو عين الحمق.

أغلقت الكراس متأففة ..

تناولت علبة المنوم night calm من حقيبتها والتي كانت قد عزمت على ألا تستخدمه إلا إذا يئست فعلاً من أن تغفو، وتناولت حبة زرقاء واحدة، أغلقت الستائر لتُظلم الغرفة تمامًا وتدثرت بالأغطية في انتظار النوم أن يحل ضيفًا طال انتظاره.

●●●

استغرق الأمر منها دقيقة كاملة كي تعي أين هي .. ظلت تتطلع حولها بعينين نصف مفتوحتين وعقل نصف واعٍ، لم تدرِ كم مر من الوقت وهي في سبات عميق .. نظرت في ساعتها فإذا هي الواحدة صباحًا.

قامت متثاقلة من الفراش الصغير لتغتسل.. ولاحظت أنها ما زالت ترتدي نفس الملابس التي جاءت بها..

ماذا إذن؟!

استغرق الأمر قرابة الثلاث عشرة ساعة من أسوان للأقصر، بالإضافة إلى ساعة في هويس إسنا .. مر منهم سبع ساعات لا غير.

فماذا ستفعل في كل هذا الوقت المتبقي..

هل تأخذ حبة منوم أخرى؟

أزاحت الستائر الثقيلة ليغريها منظر النيل الجاري وانعكاس القمر في كامل بهائه على صفحة المياه، وكأن القدر قد أراد لها أن تحيا كل تفاصيل تلك الليلة الجميلة وحدها..

بدلت ملابسها لترتدي بنطالاً من الجينز مع تي شيرت قطني أبيض مشغول بخيوط وردية دقيقة، وترتدي شابوه من اللون الوردي على رأسها .. أخذت في يدها الـ I pod وهاتفها المغلق.

نظرت في تردد إلى الكراس الملقى على الفراش..

ثم لم تلبث أن حسمت أمرها وأخذته، خرجت من الغرفة صاعدة إلى سطح الباخرة .. الذي ما إن صعدته حتى أنعشها الهواء البارد وبخّر بقايا النوم في عينيها، لتجد أنها ليست الوحيدة الساهرة في تلك الليلة، فأمامها على السطح الفسيح وجدت مجموعات من الأجانب هنا وهناك .. ما إن التقطت أذناها اللغة التي يتحادثون بها حتى أدركت أنهم ألمان.

obeikandl.com

كانت بحكم عملها تعرف العديد من مدراء البواخر.. وعلى علم بمواعيد معظم الرحلات.. لذا فقد اختارت أن تسافر على متن باخرة تحمل فوج السبع ليالٍ .. الأقصر- الأقصر، وهذا الفوج تبدأ رحلته من الأقصر ثم يتوجه إلى أسوان، وفي الطريق يقوم المرشد في الباخرة بعمل المزارات في معبدي كوم أمبو وإدفو.. ثم يمكث حوالي يومًا ونصف في أسوان ليعود إلى الأقصر مرة أخرى.. فمعظم رحلات الطيران السياحية تتوجه إلى الأقصر والغردقة أكثر من باقي المدن المصرية رغم وجود مطار دولي بأسوان وشرم الشيخ..

ووجودها مع هذا الفوج سيوفر لها عدم الوقوف المتكرر للمزارات لتضمن اللحاق بميعاد طائرتها إلى دبي..

اختارت منضدة قريبة نوعًا منهم.. كان بإمكانها أن تجلس في ركن بعيد وحدها .. إلا أنها فضلت أن تنشغل بالضحكات والهمهمات من حولها ..

كي لا تفكر.. وتمضي تلك الليلة على خير، طلبت من النادل الصعيدي القسمات فنجان **اسبريسو** دوبل، تطلعت حولها تستكشف ذلك العالم المحيط، لتجد أمامها مباشرة رجلاً عجوزًا يتمدد على الشيزلونج بجانب زوجته على المسبح يتهامسان ويتضاحكان.. أمامهم تجلس عائلة كاملة على منضدة، يتناولون الشراب ويلقون بالنكات بصوت عال، وغيرهم الكثير.

ظلت تتابع من حولها وما حولها لساعة كاملة .. ترتشف قهوتها في صمت، يكاد بطء العقارب يقتلها..

باقٍ خمس ساعات أخرى!

ما الذي يمكن أن يفعله شخص محبط محطم فقد لتوه إحساسه بالأشياء في خمس ساعات كاملة؟

لم تحسب حسابًا لهذا.. لم تحضر معها كتابًا ما.. وهاتفها قد أغلقته ولن تعيد تشغيله إلا بعد أن تغادر الأراضي المصرية بالفعل، هكذا اتخذت قرارها.

هناك في آخر السطح لمحت رجلاً أشيب الشعر يقف وحيدًا يتطلع إلى صفحة النيل في شرود محبِ..

تأملته قليلاً وعقلها يحادثها..

كلامها لنفسها

«لا بد أن له حبيبة قد خانته.. مثلما حدث معك».

الغريب أنه رغم حبكِ لمحمود .. إلا أنكِ لم تشعري معه قط بتلك الراحة أو ذاك الهدوء الذي طالما اجتاح كيانكِ مع صديقكِ المنزوي.

أنتِ حتى لم تثقِ فيه قط كما وثقتِ يومًا في ذاك الصديق.. سامح».

نظرت إلى الموبايل بحركة لا إرادية .. ونفسها تراودها في فتحه عله رد على الرسالة..

ثم تركته من يدها بحركة حادة.

«هل سامح كان لكِ مجرد صديقًا فقط؟ وهل أحببتِ محمود من الأساس أم أن ما يؤلمك هو جرح كبريائكِ!

الذكريات لا تتركها لحالها..

وعقلها لا يريد أن يستريح.. ولا يصمت.

نظرت لتلك الكراسة بجانبها ... رأت فيها المخلص من أفكارها.

«كيف لم أحضر معي كتابًا أو ما شابه..».

وضعت سماعات الـ I pod بأذنيها وضغطت زر الـ play.

عهـــــدك بقلبـــي قديـــم

عهـــــد الصبـــــا الغالـــي

ليـــــل القمـــــر والنسيـــم

بعـــــدن علـــــى بالـــــي

مطت شفتيها في حنق، حتى فيروز قد تآمرت مع الذكريات عليها.

obeikandl.com

ورغم كونها غير متحمسة نهائيًّا.. إلا أنها تناولت الكراس..

فتحته ..

تجاوزت المقدمة..

وبدأت تقرأ..

●●●

obeikandl.com

❖ أنا ميلاد عبد الصبور عبد الوارث أحمد عبد الوارث الهواري.

وكان أبي قد أسماني «ميلاد» على اسم صديق عمره ورفيق كفاحه الذي مات إثر حادث بشع قبل ولادتي بنحو الشهرين.. فأصر على أن يسجلني في شهادة الميلاد: ميلاد، حتى إن موظف الصحة قال له ساخرًا يومها:

- هه، ميلاد يا حج عبد الصبور؟

- ملكشي صالح .. أسميه ميلاد، أسميه بطرس ، أنا حر.

إلا أن الأمر أصبح أضحوكة البلدة لأيام بعدها، مما اضطر أبي لأن يطلق علي اسمًا آخر مع احتفاظه باسم ميلاد في شهادة الميلاد.

«عبد المطلب»، وذلك لأنه كان يحب كثيرًا ذاك المطرب القديم، أتعرفينه؟ ومع الوقت أصبح الجميع يطلق علي «طلبة» - كما تعلمين – .

وكنت أنا أفضّل هذا الاسم وأحبه ، فميلاد يمثل اسم المصائب بالنسبة لي .. الاسم الجاد.. الاسم الرسمي لأن أبي ما كان ينادني به إلا في أوقات العقاب – وما أكثرها!

نشأت في أسرة ثرية نوعًا بإحدى مراكز محافظة سوهاج الأثرية العتيقة...

رزقت رغد العيش منذ نعومة أظافري، فقد كان جدك يتاجر في كل شيء: في الأقمشة.. وفي الغلال والقمح.. بالإضافة إلى أنه يمتلك أراضي يقوم بتأجيرها للفلاحين لكسب قوت يومهم.. وكانت خيرات تلك الأراضي تملأ بيتنا الكبير.. فالمانجو والعنب يأتي إلينا محملاً بالعربات، حتى إن أمي كانت تقوم بتوزيعه معظم الأوقات على الجيران ..

وكان أيضًا يتاجر في المواشي والجاموس.. أذكر مقولة دائمًا ما كان يرددها ضاحكًا :» أقفل الباب تجيلي الفلوس من الشباك».

نعم كنت أتمتع برغد كبير في العيش بين المحيطين بي وأقراني.. ومع ذلك كنت دائم الإحساس بالظلم.

فجدك.. كان حادًّا صارمًا معي يعتقد أن القسوة هي السبيل الوحيد لخلق مني رجل .. حتى في ملامحه كان صارمًا جافًّا .. وكان قلبه قويًّا لا يهاب شيئًا ولا أحدًا .. مؤمنًا بأن الفتى الذي يلعب الكرة في صغره لن يصبح رجلاً جادًّا في حياته أبدًا!

ومن ذلك المنطق كان يريدني دائمًا أن أذاكر وأصلي وأجلس مع الكبار.. وأفعل كل ما هو وقور وصالح – في نظره – .

أعلم أنك تتساءلين الآن: « لماذا إذن وقد ذُقت القسوة قررت أن أذيقها لك ؟ .. وكان الأحق بي أن أتعلم من معاناتي ولا أشعرك بمثل ما شعرت».

أنت على حق .. ولكن من قال إننا لا نأتي دائمًا بما نكره.

ترى البنت قد عانت من عملية الختان وتركت فيها من الآثار النفسية والجسدية ما لا تصفه الكلمات، وأول شيء تفعله حينما تنجب أن تختن صغيرتها!

أو أن تعاني إحداهن من ضرب والديها لها.. وتأتي ذات الفعلة مع ابنتها ظنًّا منها بأنها أفضل سبل التربية!

وكنت أنا أظن في صغري بأنني لن أعامل أبنائي قط بقسوة أبي.. لست مثله.

ولكن عندما أنجبتك صرت أتصرف من ذات المنطلق – أن القسوة تنجب رجالاً – وإن اختلفت الطريقة.

كما قلت لكِ كانت كل مشاكلي مع جدك بسبب حبي للعب والسيما والتلكع مع أصدقائي، والذين لم يكونوا إلا أبناء كبارات البلدة، فابن الحاج عبد الصبور لا يصادق إلا ابن العمدة وابن مأمور المركز وأبناء الأعيان.. وكنت دائمًا أدعوهم لتناول الغداء عندنا في البيت دون علم أبي.. فهو يعتبر أن ذلك نوعًا من الرفاهية الغير محمودة، وكانت تتولى أمي إعداد الولائم المشرفة لنا..

أمي عكس أبي تمامًا.. إنسانة بريئة رقيقة الملامح والقلب ووجودها في حياتي كان بمثابة الريح الطيبة التي تطيّب وجودي في الحياة..

obeikandi.com

وكانت الوحيدة بين زوجات أبي التي تجيد القراءة والكتابة حيث إنه تزوج من ثلاث سيدات .. أمي ثالثهن.

الزواج المتعدد أمر عادي وطبيعي عندنا في الصعيد يا صغيرتي- فلا تتعجبي -.

وكان أبي يفضّل أمي عليهن ويرتاح لها ويقضي معظم أيام الأسبوع عندنا في بيتنا الكبير - كما كنت أحب أن أسميه -.

ومع ذلك لم أشعر بالغربة في أي بيت من بيوت نساء والدي ، بل بالعكس .. كانوا يعاملونني أفضل مما يعاملون أبناءهم حتى..

وكان لنسوان والدي أبناء أكبر مني بالسن..

أما أنا فكنت الأكبر عند والدتي ، يليني أربعة إخوة هم ناصر يصغرني بثلاث ثم انتظرت أمي أربع سنوات لتنجب أحمد – محمد - حامد، كلهم ما بين الأخ والآخر، سنة.

كان هذا ملخصًا سريعًا لأسرتي صغيرًا..

تعالي أعدد لكِ دمعاتي إذن.

●●●

obeikandl.com

الدمعة الأولى

- حكايتي مع سوق روض الفرج – ١٩٥٦

كنت وقتها لا أزال في السادسة..

أذكر أنني كنت في زيارة لأخي الأكبر في القاهرة بصحبة زوجة أبي .. الذي يقطن بشقة بالدور الخامس في منطقة روض الفرج.

حضرت وقتها العدوان الثلاثي .. أستطيع تذكّر أصوات الطائرات وصافرات الإنذار الذي ما إن ينطلق حتى أصرخ بمن في البيت.

- نزلوني تحت السرير علشان مموتشي من القنابل.

وأركض لأختبئ تحت التخت لحين ابتعاد الصوت.

أحيانًا ما كانت زوجة أبي تصطحبني إلى سوق روض الفرج.. وفي مرة من تلك المرات تهت منها..

ووجدت نفسي وحيدًا.. أتلفت حولي.. كان هناك مارة وباعة كثيرون على عكس الوضع في بلدتي، أتطلع إليهم بنظرات متسائلة لعل أحدهم يرشدني إلى مكان بيتنا ... ولكن كان كلٌّ في فلك يهيمون.

obeikandl.com

فظللت أمشي وحيدًا أبحث بعيني عن زوجه أبي .. لا أعرف إلى أين تأخذني قدماي وأنا مرتعب من هذا العالم الكبير من حولي، إلى أن وجدت نفسي أمام معسكر الجنود.. أمام وحدة عسكرية.

أتذكر أن جنديًّا أخذني من يدي وأجلسني على كرسي أمام الوحدة كي تتمكن أمي من التعرف على إذا هي مرت.

وبعد ساعات كثيرة قضيتها في البكاء المتواصل والصراخ وقد فقدت الأمل في أن أرى أبي أو أمي ثانية وإذ بزوجة أبي تلوح لي من بعيد في آخر الشارع.. وكانت تهرول وتبحث عني هنا وهناك ، ناديت عليها كثيرًا حتى سمعني الجندي وذهب ليأتي بها .. وما إن وقعت عيناها عليّ حتى ركضت نحوي وانحنت لتضمني:

- إنتا كنت حتوديني في داهية مع أبوك وأمك.

بعد تلك الحادثة آثرت زوجة أبي تعيدني إلى سوهاج لوالدي خشية منها أن يتكرر الموقف ولا تستطيع أن تجدني في المرة القادمة.. وكانت تلك دمعتي الأولى.

أذكر أنه عند عودتي لسوهاج أصابتني حمى شديدة.. وقد كان أباكِ في صغره جميلاً، أبيض البشرة.. مستدير الوجه.. واسع العينين.. أسود الشعر أملسه.

ولما زادت الحمى فسرت أمي الأمر بأنني (اتحسدت) من أهل مصر..

وأخذتني للست «عيدة» والتي كان منزلها بجوار المسجد الكبير .. وعيدة تتكسب قوتها مما تُقنع به النسوة هناك بأنه – رُقيا –.

أخذتني أمي لعيدة وأخذت الأخيرة ترقيني من الحسد، وأشعلت النار أمام المسجد ووضعت البخور وأخذت تردد الكلمات وتدور حول النار.

«ربنا يعافيك يا ولدي من عين الحاسدين ومن شر حاسد إذا حسد...».

أخذت ترددها كثيرًا..

وبعدها بيومين امتثلت للشفاء مما جعل أمي (تحلي بؤها) وتؤمن بقدرتها الخرافية على الرقيا.. وهكذا كانوا يعتقدون!

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

الدمعة الثانية

-حكايتي مع الشيخ «براهيم ناقص الرُّبعة» - ١٩٧٥

كان هذا اليوم مميزًا جدًّا .. اليوم الذي نفذت فيه خطتي الشريرة مع الشيخ إبراهيم مدرس الكتّاب الخاص ببلدتنا.

وهو رجل قصير وبدين بشكل ملحوظ .. لدرجة جعلتنا نطلق عليه الشيخ "براهيم ناقص الرُّبعة".

يمشي بطريقة مثيرة للضحك ، فلا هو ينظر تحت قدميه ولا هو ينظر أمامه، كان يدخل كل صباح ويبعث أحدنا ليبتاع له بقرش صاغ حلاوة طحينية، ليأكلها ويتلذذ أمامنا بها، ثم يأتي السؤال المقزز منه: **أبوك مبعتشي معاك حاجة؟؟**

فقد جرت العادة أن كل خميس يعطي التلاميذ للشيخ «براهيم» قرش صاغ ويُسمى (الخميس) وهو أجره الأسبوعي.

ولكنه في بعض الأحيان يختار حفنة من الصبية المعروفين بأن آباءهم ميسورو الحال. وكان يسألهم معظم أيام الأسبوع عن (الخميس)، وكأن كل الأيام أصبحت خميسًا..

وقد كنت أنا منهم، فهو يعلم من هو الحاج عبد الصبور..

obeikandl.com

وعلى الرغم من سني الصغير إلا أنني كنت أدرك دائمًا طمعه وجشعه.. فأتعمد عندما يسألني أن أجيبه بالنفي: " .. لا مبعتش ".

ولم يقف جشعه هنا، بل وصل الحال به أن يقوم بتأجير الفلاحين كي يستغلوا أبي في بعض الأوقات لشراء الجاموسة العُشر، ثم يخبره أنها ماتت بمرض.. على أن ينتفع بها مع الفلاح وحده هذا البراهيم..

حيث كان قد تعود جدك على أن يذهب سوق الأربعاء مع بعض الفلاحين المستأجرين لأراضيه.. الراغبين في شراء المواشي.. مالئًا جلبابه بالمال.. ثم يشتري للفلاح جاموسة حامل (عُشر) يتولى الأخير نفقات مأكلها ومشربها إلى أن تلد فيتولى نفقات تسمين العجل ابنها، ويباع ويكون المكسب مناصفة بين الفلاح وأبي الذي كان له أصل رأس المال.. ناهيك عن اللبن والسمن والجبن الذي لم ينقطع عن بيتنا أبدًا.

وتتكرر العملية عند كل ولادة للجاموسة.. وكان أبي يعلم الفلاحين الذين يأتون من طرف الشيخ براهيم ويعلم بما يفعله هذا البدين ..

وعندما يأتيه الفلاح ليخبره أن البهيمة قد ماتت يقول له مطرقًا رأسه:

«**ربنا يعوض عليك وعليا**».. فرغم أنه ليس من النوع الرحيم بأعدائه أو بمن يخدعه.. إلا أن الشيخ براهيم كان يشكّل له هالة رجال الدين .. فلم يعتبر أبدًا أن ما يفعله نوعًا من النصب على قدر

ما كان يقنع نفسه أنه تكسبًا ورغبة في المتاجرة المشروعة! منطق لا يطبقه إلا مع هذا الشيخ وأمثاله.

كنت أنا أدرك رغم سني الصغيرة كل تلك الملابسات، فحتى يوم الخميس عندما يبعث معي أبي بالقرش أخفيه عنه نكايةً فيه..

ولم يكن يقف هو موقف المتفرج على نكايتي فقد تعود هو الآخر على أن يقلّب جدك علي، لأنه يعلم أن الأخير صارم معي شديد.. وخاصة في كل ما هو متعلق بالدين..

فدائمًا ما يتردد على أبي في محل القماش .. ليحتسي القهوة ويشرب من الـ «سجاير المكنة..» (فقد كان أبي وبعض كبار البلدة وحدهم هم من يستطيعون الحصول على السجائر المكنة..

أما الباقون فلا يستطيعون سوى الحصول على السيجارة اللف..).

- سلامو عليكو يا حاج.

وعليكو السلام يا شيخ "براهيم» .. الواد عامل إيه .. بيحفظ؟

وبخبث ثعبان ومكر ثعلب يقول:

- واللّه مبيحفظشي يا حاج دماغه ناشفه.

فيستشيط أبي غيظًا ويسأله:

- طب عليه سورة إيه.

فيختار الشيخ أي سورة تخطر له على بال ويسميها لأبي.

فينادي علي ويحضر المصحف ويجلسني أمامه على الكرسي ويأتي بكرسي آخر ليضعه فوق رأسي!!

- مش حنزله إلا لما تسمّع.

طبعًا لكي أن تتخيلي – يا ابنتي – حالتي والكرسي الثقيل فوق رأسي.. ولساني لا يستطع أن ينطق بحرف من بالذكر الحكيم وعيناي تتوسل بلا جدوى..

فيما بعد عندما قرأت الأيام لطه حسين استطعت أن أستشعر الظلم الواقع على الصبي عندما كان شيخ كتّابه يوشي به عند أبيه طالبًا المزيد من الأموال!

دائمًا يا يفعلها معي الشيخ براهيم.

..كم أكرهه!

وهذا ما دفعني لتنفيذ مخططي في ذاك اليوم.

وهو مخطط شرير إذا ما قارنتِه بعقل طفل يبلغ السابعة من عمره.

اتفقت مع العقول الصغيرة التي لم تكن أقل مني شرًّا وحقدًا على الرجل.. وقمنا برش المياه على العتبة الطينية العريضة للمسجد، ثم بشرنا الكثير من الصابون الذي تستخدمه أمي في الغسيل .. وعندما لمحناه قادمًا من بعيد تنحينا جانبًا ليتثنى لنا فرصة المشاهدة والاستمتاع.

أتى ماشيًا بطريقته المضحكة تلك، ولم يكد يتخطى العتبة حتى فقد توازنه وانزلقت قدماه وانقلب أرضًا كالفنطاس وسقطت العمامة من على رأسه وهو يسب ويلعن.

أما أنا – ولعجبي – لم أبكِ مما كان يفعله بي أبي بسبب ذاك الشيخ.. ووجدتني أبكِي إشفاقًا عليه يوم أوقعناه أرضًا.. عندما عدت إلى البيت أجهشت بالبكاء ولا أدري لذلك سببًا..

ولكن هذا ما حدث.

●●●

obeikandl.com

الدمعة الثالثة

- حكايتي مع مِخوَل العجل - ١٩٥٩

«أبي»

في ذاك اليوم جاء إلى المحل اثنان من أهم تجار القماش .. وكنت قد اكتشفت للتو أن الشاي والسكر قد نفدا .. فأمرت طلبة أن يبتاعهم ثم يأتِي لي على التو.. وألا يتأخر..

ذهب وغاب طويلاً.. ولم أتمكن من أن أقدم للرجال واجب الضيافة.. وهذه لم تحدث من قبل في بيتي أبدًا، أعرف أن طلبة (لعبي).

أنا متأكد أنه نسي ما أمرته به ليذهب للّعب مع أحد أصدقائه المتشردين.. وبعد ما يقرب من الساعة جاء:

- إنتا كنت فين؟

- أصل.. أصلي لاقيت الدكان مقفول.

- ومجيتش علطول ليه ده الدكان في أول الشارع؟

- منا استنظرته لحد ميفتح.

هذا اللعين يكذب اعلم ذلك..

عم شحاتة البقال لا يغلق دكانته في عز النهار أبدًا .. وفي حين أنا أصيح به كي يقول الحقيقة وإذا بالواد منصور زميل طلبة في المدرسة يمر من أمام المحل وأثناء مروره يقول له:

- هو الأستاذ عبعزيز كان بيقولك على الواجب؟

أنا على صواب إذًا.

- إنتا بتكذب يا واد؟

- أصل الأستاذ كان عايزني أوديله الحاجة البيت.

- ومقلتش ليه من الأول.

- أصلي خفت منك.

- خفت؟ طب تعالي ورايا عالبيت وأنا حوريك كيف تخاف.

كنت قد نويت أن ألقنه عقابًا لا ينساه أبدًا.. فأنا أكره الكذب... أمقته حد الموت.

لماذا يكذب علي دومًا.. أنا سأعلمه الآن كيف يكذب.

سأقوم بربطه من يديه في مِخوَل عجل كبير في الحظيرة.

هذا العجل مريض ولا يقدر على الحراك.. ولكن ضخامته سترعب ذلك الكذاب كي يقضي ليلته يفكر فيما اقترفه ويؤنب نفسه.

ولن ينسى هذا العقاب ما حيا.

سأفعل به ذلك.

أقسم أن أفعل.

●●●

أنا

كنت في طريقي لأحضر الشاي والسكر لضيوف أبي حين قابلني.

الأستاذ عبد العزيز..

الأستاذ عبد العزيز باختصار: سماجة وعنجهية تمشي على قدمين.

مدرس في منتهى الصعوبة دائمًا ما تسمعه يصيح في هذا ويضرب ذاك بعصاه الحادة التي أظن أنه لا ينساها حتى في نومه:

- إزيك يا واد يا طلبة.

- الحمد لله يا أستاذ.

- بقولك إيه خد لفة اللحمة دية وديها عندي البيت.

obeikandi.com

كان يقطن بعد منزلنا بشارعين... سأذهب ركضًا لن أتأخر.. بالإضافة إلى عدم قدرتي على الرفض أصلاً.

- ولا أقولك.. تعالي معايا.

يا ستار يا رب:

قلتها في سري طبعًا بينما هززت رأسي في استسلام ومشيت خلفه.. إلى أن وصل إلى السوق.. وتبضّع، وكان كلما يبتاع غرضًا يحمّله لي وكأنني حمار جاء به كي يحمل عنه ..

ظل هكذا قرابة النصف ساعة حتى كدت أجن.. فلن أستطيع إخبار أبي بذلك أبدًا.

عندما انتهى قال:

- ياللا كفاية كده خد بأه كل ده ووديه على البيت .. متياللا يا واد إنتا متتح كده ليه؟

- حاضر.

قمة العنجهية في هذا الرجل.. من يظن نفسه كي يحملني كل تلك الأشياء ويأمرني أن أسير بهم كل تلك المسافة.

امشي اترنح من حرارة الجو الرهيبة ومن تعب السير ومن الثقل الذي أحمله أيضًا..

ولكن ما الذي بيدي لأفعله.. فالأستاذ عبد العزيز أهم مدرس في المدرسة، ناهيك عن كونه له الفضل في اختصار ثلاث سنوات دراسية لي.. فحين جاء ميعاد تقديمي للمدرسة وحضر معي المسؤول عن ذلك الأمر في الكتّاب.. ودخلنا للناظر:

– عاوزين ندخلوه المدرسة.

الناظر في تأفف:

- خدوا للأستاذ عبعزيز يمتحنه الأول.

دخلت معه للأستاذ عبد العزيز الذي بدا لي من الوهلة الأولى مثال مجسم للمدرس التقليدي الذي طالما تخيلته بخرزانة وكرش وأسلوب سمج ووجه عابس طوال الوقت.

أعطاني الطباشير في يدي قال اكتب:

- ذهب محمد إلى المدرسة.

فكتبتها بسهولة .

- كويس.. طب و٤×١٢ بكام؟

قلت بعد ربع دقيقة:

- بـ ٤٨ يا أستاذ.

obeikandl.com

نظر لي متمعنا هنية ثم قال:

- خلاص يبقى ندخلوه سنة تانية.

فقال الرجل الذي معي معترضًا بصوت عال:

- وليه يا بوي متدخله رابعة.. منتا شايف الواد مستواه ما شاء الله عليه أهو .. وبعدين دا ابن الحاج عبد الصبور.

- لا رابعة كتير .. ندخلوا سنة تالتة .. ماشي ولا إيه؟

- خلاص يابوي تالتة تالتة مبروك يا طلبة.

ومذ ذاك الحين وأنا أحاول أن أثبت نفسي بين الآخرين الذين قد تدرجوا في السنين حتى وصلوا إلى الصف الثالث.. لأنهم لم يدخلوا الكتّاب مثلي.. أو أغلبهم على الأقل..

- نعم؟

كنت قد وصلت بالفعل أمام منزل الأستاذ عبعزيز وطرقت الباب بعقل شارد.. وهها هي زوجته تنظر إليّ بعين تحمل شك أنثوي فطري.

- الأستاذ عبد العزيز باعتلك الأغراض ديه.

- وإنتا واد مين بأه؟

قلت في أدب:

- أنا ميلاد... طلبة واد الحاج عبد الصبور.

- وفي سنه كام يا طلبة؟

قلت في نفاد صبر:

- في تالتة.. ومعلشي بعد إذنك أبوي مستنظرني..

قلتها وانطلقت ركضًا قبل أن تقول شيئًا آخر، ستتسبب لي تلك المرأة فيما لا يحمد عقباه بالتأكيد، ركضت إلى أن وصلت إلى البقال حيث ابتعت الشاي والسكر.. ثم ركضت مرة أخرى كي ألحق بأبي وضيوفه.. ولكن ما إن لاح لي المحل من بعيد حتى رأيت أبي يقف أمامه وحده!! أيكون منتظرني؟؟ استر يا رب.

حين وصلت وجدته في انتظاري ، سألني وشرر عينيه يسبقه فيم تأخري؟

فأخبرته أنني كنت في انتظار أن يفتح البقال..

وكاد كل شيء أن يمر بسلام لولا ولد الفرطوس فتحي .. رآني مع الأستاذ عبعزيز وظن أنه يعطيني (الواجب) وفضحني أمام أبي..

الذي نظر لي بنظرة أحفظها جيداً.. وأمرني أن أتبعه للمنزل.. تبعته وعقلي يصور لي أبشع ردود فعله، عند وصولنا وجدته يصطحبني إلى الحظيرة ويقوم بتقييدي من يديّ إلى مِخوَل عجلٍ كبير .. (وهو عبارة عن برميل مردوم في الأرض كي يحافظ على ثباته .. يُملأ نصفه بالأسمنت والنصف العلوي يُترك فارغ كي يوضع فيه الأكل، ربطني وأحكم وثاقي وأقسم أن يتركني بجانب ذلك الكائن المخيف وحدي حتى الصباح!!

تركني معه رغم بكائي وتوسلات أمي ونحيبها الذي جعله يقسم بأغلظ الأيمان لو لم تنته ليوثقنها هي الأخرى في مخول عجل آخر!!

- يابوي حرام عليك العجل يرفسه.
- كفياكي نحيب والله لو ماسكتي لأربطك جنبه.

بكيت.. بكيت طويلاً..

كانت ليلة سوداء لم أستطع النوم فيها من الرعب .. كلما يثقل جفناي، تلتقط أذني حركة خفيفة من جاري الجديد.. فأنتفض في فزع وخوف..

وأكتم أنفاسي خائفًا من أن يلاحظني فينقض ويقض عليّ.. ما هذا الأب الذي رزقتني به يا ربي.. كيف يفعل بي هذا ..أنقذني يا

رب.. أنقذني فقط تلك الليلة. أرجوك.. ونزفت عيناي بدموع ساخنة بثتها كل رعبي.

●●●

● وأنا أخط لكِ تلك الدمعة يا ابنتي كتبت ما حكاه لي أبي بعدها عن حقيقة مِخوَل العجل العجوز، أدركت وقتها ظلمي له وظني السيئ به..

لا تنظري للأمور من منظور واحد يا عاليا.. فلم يمر يوم عليكِ في غربتِك إلا وأنا أتابعك .. أعرف عنك كل شيء.. أسماء أصدقائك.. مواعيدك..أساتذتك، وحتى بحثك في « تاريخ تنظير العلاقات الدولية» الذي يضنيكِ تلك الأيام في كتابته.

أنا مهتم.

أنا أتابعك بقلب مشتاق.

عكس ما تتصورين.

●●●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

- كانت دائمًا تقف معه على حافة الأشياء.. تخلخل قدماها، في منتصف الطريق، وترتعش يديها وتنسحب .. لتترك يديه ممدودة.. وحيدة.

كان عهدها به قديم قدم الطفولة..

عندما قرراً أبواها السفر للعمل بدبي بعقد عمل ممتاز لكليهما في مجال برمجة الكمبيوتر.. واختارًا أن يتركاها عند عمها بأسوان، اعتقدا ككل المغتربين أن الغربة لن تستمر بهما لأكثر من عامين أو ثلاث على الأكثر.

تكون شفق قد أتمت شهادتها الابتدائية في بيت عمها.. ثم يعودا إلى الوطن بعد أن يتحصلا على مبلغ لا بأس به من المال.

ولكن ها هو نفس السيناريو المعتاد قد تكرر.. فبريق الأموال قادر على أن يلقي على القلوب غشاوة .. قررًا إمداد العقد على أن يعرضا على الابنة السفر للاستقرار والإقامة لديهم هناك.

ولكن - شفق - في الحقيقة كانت قد أحبت بيت عمها كثيرًا.. أحبت تلك الطيبة المطلة من عينيه .. أحبت سامح ابن عمها الذي يكبرها بسنة واحدة.. والذي كان يلازمها في كل أنشطتها المجنونة.

رفضت الطفلة ذات العشر سنوات أن تترك بيت عمها .. واستطاع الأخير إقناع والدها بأن تبقي معززة مكرمة في بيته، على أن يرسل لها ما تحتاجه من مصاريف الدراسة وخلافه.

في الواقع لم يكن الأب بحاجة للإقناع.. فليس للبنت مكان في ذلك الأستوديو الصغير الذي استطاع أن يستأجره بنصف راتبه تقريبًا.

على الأقل هو مطمئن عليها في أسوان ويعلم أنها في أيدٍ أمينة.

كان هذا هو ما وقر في نفس والديها وسكنت به ضمائرهم.. أعقب العام تلو الآخر.

والطفلة الصغيرة قد نمت ونضجت ونما معها وعيها بالأشياء.

كانت شفق كلما كبرت زاد تعلقها بعمها .. وامتد شغفها ليشمل المدينة بأكملها.

عشقت الأرض التي ترعرت فيها .. أسوان.

بلد الفتنة والسحر والجمال.

وهي، كانت ناعمة كالسحاب ، شامخة كجبال أسوان.

منذ صغرها كانت أعند من ألف حجر لا تعترف أبدًا بأنها مخطئة، وكان لا يسع العم الحنون وقتذاك إلا أن يبتسم ابتسامته الطيبة هازًّا رأسه في تفهُّم، يعلم أن في داخلها قاضيًا يحاكمها ليلاً عن تلك الأخطاء، ثم يأمر الجلاد بتنفيذ العقوبة لتفيق من غفوتها وقد ابتلت وسادتها من أثر دموع استجدائه بالمغفرة.

كانت تبكي نعم .. ولكن وهي نائمة، في الكوابيس .

فرغم رقتها إلا أن شيئًا ما في نفسها كان يأبى البكاء..

تنزل دموعها دومًا لتصنع انهارًا من الماء المالح، ولكن في داخلها.. أو نومها.

ودون ذلك لا تجد الدموع إلى مقلتيها سبيلاً أبدًا.

طالما سألت نفسها عن السبب المجهول الذي يجعل تلك الدمعات تتجمد قبل أن تصل لعينيها.

ألأن البكاء ضعف؟ وهي لن تبدو واهنة أمام أي مخلوق.. أو بمعني أدق أي مخلوق، باستثناء عمها الطيب.

نشأتها بعيدًا عن أحضان والديها، وخاصة والدتها بدّل فيها شيئًا ما.. شيء لا تدري كنهه، ربما لذلك ارتباط بشكل أو بآخر بأمر البكاء.

لا تدري ولا يهم، يكفي أن تحملها روحها البريئة على أن ترى الجمال في كل ما حولها.

في مشهد غفيان الشمس بين أحضان النيل،

أو مشهد تلك الجزر الصغيرة التي اتخذت من مياه النهر مسكنًا،

أو مشهد النخيل والأشجار على الضفتين،

أو احتضان الجبال لكل تلك المشاهد وكأنها الحارس الأبدي لحدود المدينة.

●●●

obeikandl.com

الدمعة الرابعة

-حكايتي مع السيد برعي – ١٩٦٠

(عم عرفة عاوز بقرش صاغ شطة سوداني)

هو من بدأ القتال..

فعم برعي أو (السيد برعي) كما يحب أن يُطلق عليه..

مرة أخطأت ولم ألقبه بـ» السيد» نهرني بشدة وشكاني إلى أبي .. فهو لم ينس أبدًا كونه في يوم ما سيد ، ذو مالٍ وجاه..

السيد برعي هو من بدأ القتال بيننا ، فمذ جاء إلى بيتنا وهو لا يكف عن إصدار الأوامر لي وكأنني أعمل عنده فرّاشًا .. ناهيك عن أوامره لأمي المسكينة والتي لا تملك إلا أن تطيعه خوفًا من غضب أبي والذي كان يُضمر له مكانة خاصة في قلبه.

بدأ الأمر منذ ما يقرب من العام عندما طرق "السيد برعي" بابنا للمرة الأولى.. كان مظهره ينم عن رجل هائم.. مسكين.. ثيابه ممزقة.. ووجه مليء بالتجاعيد .. ما هي إلا تجاعيد الحزن لا الزمن إن أردتِ رأيي.

obeikandl.com

عندما جاء إلى البلدة دلوه على بيت أبي لأنه رجل خيّر ويساعد المساكين، خاصة أن السيد برعي كان من الأعيان في وقت ما.. سمعته ذات يوم يروي قصته لأحدهم.. قال إنه كان لديه الكثير من الأموال والأراضي ومن الجنيهات الذهبية الكثير، حتى إنه كان يحرص جمعها كل فترة وغسلها وتنظيفها جيداً من فرط خوفه عليها.. وذات يوم دخل عليه أبوه وهو على هذا الحال.. فتشجع وطلب منه بعض المال لأنه كان يمر بضائقة مادية ومهدد بالحبس.. فأما السيد فقد نهره وأبعده عنه .. وتحدث معه بأقبح الألفاظ.. فما كان من والده إلا أن دعا عليه.

روح يا ولدي إلهي تصرفهم على نور عنيك

بعد ذلك المشهد بشهور فقط حدثت للسيد برعي حادثة أضاعت بصره.

وأصيب بالعمى .. وذهب إلى الكثير من الأطباء داخل البلدة وفي القاهرة.. وأنفق المعظم من أمواله في علاجات وعمليات جراحية متلاحقة دون أدنى أمل.. وعندما عاد وجد أن أبناءه قد سرقوا الباقي من أمواله، ولم يستطع ذلك البائس إلا أن يترك البلدة بعد أن ضاقت به الأرض بما رحبت.. بدلاً من أن يصير أضحوكة بين الخلائق.. وجاء إلى مركزنا.. وقضى أياماً في الشارع قبل أن يدلوه

الناس على منزل الحاج.. هذا ما رواه ولا أعلم إن كان حقيقيًّا أم أنه يلفق تلك الحكاوي كي يستحضر شفقة البلدة؟

وهذا ما حدث بالفعل.. لم يهبه أبي الحاج أموالاً، بل وهبه المضيَفة!!

نعم .. استضافه الحاج عندنا في المضيفة الملحقة بالمنزل في الدور الأرضي.. كنوع من الصدقة، وأيضًا كان تفكيره بأن السيد برعي يحرس المنزل ليلاً.. فجدك شكاك إلى أقصى درجة ويخاف على أمواله كثيرًا، غير أنه لا يؤمن بالبنوك .. ولا يشعر بالراحة إلا وكل مدخراته في منزله أو في محلاته .. كان دائمًا ما يقول:

ـ " يابوي مايمكن البنك يسرجهم مني.. بس هنا هما في خزايني تحت عيني».

نبّه أمي أن يأكل مما نأكل.. ويشرب مما نشرب، وما هي إلا أيام وحضر إليه أبناؤه كي يأخذوه ، ولكن الأخير رفض.. وقال إنه وجد راحته في منزل الحاج عبد الصبور.. وجد راحته وأدماني أنا!

هذا الرجل كان غريب الأطوار فعلاً.. غير معقول ما يفعله.. يذهب إلى الجزّارين كل خميس عند الذبح ليشحذ اللحم! كثيرًا ما نهره الحاج على تلك الفعلة المشينة فنحن لم نقصّر معه قط..

ولكنه لم يستمع، يذهب أسبوعيًّا ليأتي لأمي بحثالة اللحم ويقف على رأسها كي تضع له كل ما أتى به في صحنه.. وكأنها ستسرق بعضه!!

في شهر رمضان الماضي كان يمر على البيوت ليوقظهم للسحور قائلاً بيتًا من الشعر بصوت جهوري .. ثم يتبعه بنداء لصاحب البيت.. لا أدري كيف يصل إلى الشوارع وهو ضرير؟ وكيف يعلم طريقه؟ بل كيف ومتى استطاع أن يحفظ كل تلك الأسماء؟؟

كان يقول:

ألا بالصـــبرِ تبلغُ ما تـــــريد

وبالتقـــوى يلينُ لكَ الحـــديد

تـــريدُ النفسُ أن تبلغَ مناهـــا ..

ولكـــن اللّه يفعـــلُ ما يـــريد

ويظل يغنيها ويطرق على البيوت .. وآخر الشهر الكريم كان يمر كي يأخذ من كل منزل المعلوم، وقال بأنه سيفعل نفس الشيء كل رمضان، واضح أنه لن يترك البيت بسهولة!

أما عاشوراء الفائتة كان أول المصطفّين أمام أبي، فقد تعوّد جدّك في عاشوراء من كل عام أن يرسل في طلب «بالات» القماش من مصر .. والبالات عبارة عن مقاطع أو «مجاطع»، كل مجطع عبارة

عن قطعة قماش ملفوفة تكفي لجلابية .. بالإضافة إلى أتواب من محلُّه في حدود المترين أو الثلاثة أمتار حسب نوع القماش.. وكان (يفك) قبل هذا اليوم مبالغ كبيرة إلى (إربع وانصاص جنيهات) يملأ بهم فنطاسًا كبيرًا.. واعتاد الناس من أهل البلدة أن يصطفوا أمام المحل صبيحة عاشوراء ليأخذ كل منهم مجطع وورقة مالية .. ذاهبين داعين لأبي بدوام الحال وطول العمر..

أعلم ما يدور في رأسِك.. وسأجيبك..

مبلغ الربع جنيه كان كبيرًا جدًّا وقتها .. فرطل الضأن كان أيامها بـ١٢ قرشًا، ورطل الجاموسي بـ ١٠ قروش!

كنت أرى ذلك كله وأنا صغير حتى انطبع في ذاكرتي البكر، وهو ما جعلني أكرر الأمر ذاته في كل صلاة عيد بتوزيع الهدايا بعد إقامة شعائر الصلاة في مسجدنا – كما أنك بالتأكيد ما زلت تذكرين.

أما السيد برعي فكان يقف مع المصطفين ليأخذ نصيبه ثم يخفيهم في المضيفة، ويعود ليقف في آخر الصف مرة أخرى قاسمًا بأغلظ الأيمان بأنه لم يأخذ! وكان أبي رأفة به يعطيه.. صدقة،

كل هذا جميل وليس لديَّ فيه أدنى مشكلة .. ولكن أن يطلب مني كل فترة أن أشاركه في عادته اللعينة، فلا..

كان يهوى جمع أعقاب السجائر الفارغة (السبارس) من الشوارع ويأتي بها للمضيفة، ثم يأتي بي أنا كي أفرغها له من التبغ، ومن ثم أقوم بلف السجائر مرة أخرى.. كم كنت أكره تلك الرائحة وأكره ما أفعله وأكره نفسي في تلك اللحظات!!..

شيء مقزز جدًّا.. وعندما شكيته لأبي .. قال:

- يا ولدي منا عرضت عليه يشرب من السجاير الماكنة اللي بشرب منها .. بس مرضيش.. الراجل عنده كرامة وعايز يشرب سجاير لف.. معلشي راجل غلبان .. إتعب نفسك شوية .

ويا ليت الأمر يقتصر على اللف.. بل كان السيد يتطوع ويقوم بتسليتي أثناء ذلك وكأنه يكافئني.. وكان يحكي لي حكاوي عن العفاريت و(الحيايا) .. ودائمًا ما تسبب في أن أقضي ليالي طويلة في أرق ورعب.. لعنة الله عليك يا سيد يا برعي.

في ذاك اليوم قررت أن أضع له شطة مخلطة مع التبغ.. وليكن ما يكون..

هو من أيقظ تلك الطاقة الشيطانية الكامنة في قلب طلبة.. فليتحمل التبعات إذًا.

وبالفعل ابتعت شطة سوداني وخلطتها كلها مع القليل من التبغ!!

يومها كاد الرجل أن يموت .. ظل يسعل بشده ويتقيأ حتى جاء له أبي بحكيم البلدة الذي قال بأنها حالة تسمم!!

ورأيت بعينيّ أبي توعُّد مرعب أعلمه جيدًا وكأنه يعلم ما فعلت بالرجل، وكدت أنا يومها أن أموت أيضًا من كثرة ما ذرفت من دموع، دموع فزع على مقلب صغير أردت أن أفعله بالرجل، فانقلب السحر على الساحر وكدت أن أقتله .. ظل راقدًا في الفراش لاسأبيع طويلة .. إلى أن تعافى وبرأني قال إنه شغوف بأكل الشوارع الرديء.

نعم فقد كنت مشاكسًا جدًّا:

رحمة اللّٰه عليك يا سيد يا برعي..

●●●

onelkanal.com

obeikandl.com

الدمعة الخامسة

- حكايتي مع فيلم الخطايا - ١٩٦٢

لم يكن أباك أبدًا ذلك الطفل الخجول المطيع.. كنت كثير الحركة دائم الجدال متنوع المغامرات،

وكنت أستخدم أخي ناصر دائمًا لمساعدتي.. عند تغيبي عن المنزل.

ودوره هو التستر علي وأن يتسلل ليفتح لي الباب الخارجي عند مجيئي.. في ساعة متأخرة من الليل لأن جدك – كما أنكِ بالتأكيد قد توقعتِ – يغلق ذاك الباب من بعد صلاة العشاء مباشرة!

وكنت أنا أنتظر أن يخلد الجميع للنوم بعد الصلاة وأتسلل إلى السطح لأقفز منه على سطح بيت أختي المتزوجة.. والذي كان ملاصقًا لبيتنا.

وأنزل على الدرج إلى حوش بيتهم.. حيث أترك دراجتي كل ليلة .. لأستقلها وأنطلق إلى وجهتي.. وكانت تتستر على هي الأخرى وزوجها.

الحقيقة أن الجميع كانوا يعلمون عني كل شيء ما عدا أبي، كحادثة الباتعة .. سأرويها لكِ بعد قليل.

أتذكر أيضًا ذلك اليوم الذي استقللت فيه دراجتي قاصدًا السينما.. وكان لدينا واحدة في المركز..

تلك الليلة بالذات ولسوء الحظ .. سمع ناصر بعد العشاء وقع أقدام أبي الحاج يصعد إلى الطابق الكائن فيه غرفتنا أنا وهو وحياة أختي الصغيرة التي لم تتجاوز السادسة من عمرها – والتي توفت وهي صغيرة.

وعندما تناهى إلى سمعه وقع الأقدام قام إلى فراشي سريعًا ووضع الوسادة محلّي وغطاها تمامًا بالبطانية ثم رجع إلى تخته.

دخل أبي وأراد الاطمئنان عليه – فقد كان مريضًا يومها – ثم سأله عني فأخبره أنني أغط تحت البطانية في نوم عميق.

لم يشك الحاج في شيء وكاد الأمر أن ينتهي هنا وهمّ بالخروج لولا أن نادته «حياة»:

- يا بوي ده مش طلبة دي المخدة .

التفت لها مندهشًا فوجد البراءة والصدق في عينيها الصغيرتين.. فاتجه مغاضبًا لفراشي ورفع الغطاء بحركة حادة فإذا بالأمر ينفضح.

علمت بعدها أن ناصر لم يسلم من تهديدات أبي بالوعيد واستجواباته حتى قال:

- معرفشي هو يوماتي يروح عند أختي وياخد عجلته من عنديها ويروح المركز مع اصحابه.

وإذا به ينطلق إلى بيت أختي ويظل يصيح بها وبزوجها ويؤنبهم على تشجيعهم لي علام؟ على - قلة الاحترام -!

ولم يتمالك زوج أختي نفسه أمام الإهانات، فاصطحب الحاج وأوقفوا سيارة مخصوص لتأخذهم إلى المركز، كان زوج أختي يعلم أين أنا، وكنت أنا وقتها في عالم آخر مع عماد حمدي وهو يقول لعبد الحليم: «انت مش ابني ، حسن يوسف هو اللي ابني».

لدرجة أنني لم أنتبه إلى صوت الرجل الذي كان ينادي باسمي والذي لم يكن سوى عامل المكان.

- ميلاد.. في حد اسمه ميلاد؟ والده عاوزه بره؟

بعد دقائق سمعت صوت زوج أختي الذي أعلمه جيدًا..

- ياواد يا ميلاااااااااااد.

كل السينما سمعته تقريبًا.

«**دي طبلت**» قلتها في نفسي وقد تملكتني رعشة من رأسي وحتى أخمص قدماي..تركت الفيلم وأصدقائي وخرجت لأجد أبي في انتظاري وعينيه تنذر بالويل..

أجلسني بجانب السائق وجلس هو في الكرسي من ورائي.. وظل يضرب على – إحم – رأسي طوال الطريق حتى وصلنا إلى البيت..

وأنا تذرف عيناي الدموع الصامتة... لا من شدة الضربات ولكن من رعبي وتخيلي للعقاب الذي سأناله عما قليل.

وعندما وصلنا وقبل أن أعاقَب أخبرتنا أمي أن الحمّة قد اشتدت على ناصر.. ليأخذه ركضًا إلى الحكيم.

ولم ينقذه يومها من يد جدك سوى مرضه،

ولم ينقذني أنا أيضًا سوى مرضه.

لم أمرّرها لناصر وحمّلته كل الذنب رغم أنه ما كان يملك شيئًا من أمره.. رحمه الله.

●●●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

- كان كل شيء جميلاً.. رائعًا..

إلى ذلك اليوم المشئوم الذي توفى الله فيه عمها.

أحدث ذلك شرخًا في عمق روحها.

فهي العزيزة الشامخة ..كانت تستمد قوتًا كلها من ذلك العجوز.. هو من كانت تلجأ إليه في أوقات ضعفها ليغذي داخلها تلك الطفلة الهشة.. ويعطيها ثقة وقوة لترجع مرة أخرى للعالم من جديد.

فلم تتخيل قط أن يأتي اليوم الذي يحتضنه فيه تراب.

وحتى هذا اليوم الذي نما إلى علمها هي وسامح بأنه مصاب بالمرض اللعين الذي استطاع بكل تبجح الوصول إلى كبد العم الطيب.

كانت تحاول إقناع نفسها دائمًا بأن الشفاء ما زال ممكنًا ..

رغم تيقنها بأن الحالة في طورها الأخير، إلا أن عقلها كان عاجزًا عن استيعاب ذلك ..

وحتى يوم الدفن، لم تستطع قط أن تفهم كيف سيضم الثري جسده النحيل ، كيف سيتركونه وحيدًا هناك في ظلمة القبر؟

كم كان يخشى الظلام ..!

تلا موته ليال لم تدر كيف مرت عليها.. وكان ونيسها الوحيد فيها هو سامح.. ابن العم الذي لم تراه سوى أخٍ لها ..

منذ الوفاة كان بجانبها صديقًا مخلصًا قريبًا..

فقد تربيا معًا في ذات البيت بمنطقة «أطلس» العامرة واستوعبا معًا معاني الأشياء.

كان سامح يشبهها في كل شيء، أم أنها هي من كانت تشبهه؟!

كانت لهما نفس العادات تقريبًا..

كلاهما يعشق السمك المشوي.. وتعافى نفسيهما ما دون ذلك من الأسماك.

كلاهما يستمتع بتولستوي ، بينما يمل من ماركيز.

كلاهما عاشق لفيروز ولا تُطرب أم كلثوم روحه.

كلاهما يفضل كل ما له علاقة بالكلاسيكية الإنجليزية ويرفض كل ما يمت بصلة للفجاجة الأمريكية.

كلاهما يفضل الهدوء، يرى أن قاعة الأفراح ما هي إلا مكان بغيض تجتمع فيه الفتيات الراقصات المائلات والشباب أشباه الرجال المهتزة خصورهم.

وسط أجواء من الهرتلات الشعبية والمهرجانات ذات الكلمات الإباحية المسفة.

وكلاهما يعشق الفصحى حد الفتون..

أمتع الأوقات كانا يقضياها في جزيرة الفرعون الذهبي .. فما إن يصلا إلى المرسى ويتعرفا على المركبي صديقهما حتى يقوم بتوصيلهما دون أن يطلبا إلى «المخبأ» – كما كان سامح يسميه –.

فتلك الجزيرة بعيدة عن كل العيون ، بعيدة جدًّا عن العمران، وهي جزيرة تقع جنوب أسوان ..

تختفي خلف الهضاب الكبيرة والجبال والحشائش الهائلة، لا تراها أبدًا وأنت على الشاطئ بالخارج.

منذ تلك المرة التي أراها سامح ذاك المكان.. عندما ذهبا إلى هناك وانفصلا عن العالم ليقررا أن يكون يومهم للمذاكرة على الأنغام النوبية أو على محمد منير الذي لا ينقطع صوته في كل شبر من أسوان وخاصة في جزيرة الفرعون ، ظلا يحتسيا هناك أكوابًا فخارية من الشاي بالنعناع على الفحم.. حتى انتشيا وتحادثا في كل شيء بخلاف المذاكرة..

تذكُر أنه كان يلي ذلك اليوم امتحان لكل منهما في كليته ورسبا فيه!

وتذكُر أنها قالت له يومها هناك بكل جدية:

- «لم لا نتحدث الفصحي؟».

أجابها ضاحكًا:

- «لا أخفيكِ سرًّا.. سأضحك عليكِ كثيرًا حين تخطئين».

قالت بعينين ملؤها التحدي:

- وكذا سأفعل أنا.

ليجيبها في ثقة:

- لا أظن، فأنا ابن العربية ولِدت برحمها وأرضعتني الصور والمعاني ، ثم فطمتني على علم الكلام.. عمومًا موافق، على أن نبدأها معًا في برامج الثرثرة..

قالت ساخرة:

- ثرثرة؟ لا تنتظر مني أن أقول تلك الكلمة، اسمه الـ chat لا تكن معقدًا.

قال ضاحكًا:

- ها قد تنازلنا درجة.

- بطل رخامة بأه.

ليضحكا سويًّا وتصمت قليلاً ثم تقول في خبث:

- ها قلت إيه بأه ..

- في إيه يا مجنونه إنتي؟

- إن أنت طاوعتني ستعرف بأننا قدمنا من عالم موازٍ..

عالم سحيق..

أو عالم الروايات..

أو عالم الفتوحات..

ولكنه بالتأكيد ليس عالمنا الفارغ..

نظر في عينيها مباشرة وقال:

- أطاوعك يا مُنية القلب، ولو وددت عبور المحيط سيرًا لاتبعتك.

obeikandl.com

ثم تنحنح قليلاً وأردف:

- اللي يسمعنا دلوقتي يقول طالعين من فيلم كارتون.

في اليوم الثاني رسبًا في الامتحان لأنها ظلت اليوم كله تقنعه بضرورة أن يتحدثا معًا الفصحى ليحافظا على الاختلاف.

منذ ذلك اليوم كانت كلما أرادت الاختلاء بذاتها حملت نفسها وألقت جسدها داخل أول قارب إلى جزيرة الفرعون.

يجب أن يكون المراكبي محنكًا كي يستطيع الوصول إليها وأن يراوغ الكثير من النباتات التي تعترض الطريق والصخور المخباة تحت سطح النهر..

تذهب إلى هناك تجلس القرفصاء على الوسائد الموضوعة أرضًا خصيصًا لذلك.

تحتسي قهوة الجَبَنا .. وهي قهوة أسوانية شبيهة بالقهوة العربي في كل شيء ، عدا أن الأخيرة تصنع من البن الأخضر، أما الجَبَنَا فيتم تحميص البن جيدًا على الفحم قبل الوضع الهيل وباقي المكونات.

بمجرد وصولها تتجه إلى الركن الذي اعتادت عليه .. وهو ركن يُظهر النيل من خلاله بزاوية رائعة محاطًا بالنخيل ومن ورائها الجبال.. ويظهر منها جريان النهر في أوضح صورة.. لأن الصخور المختفية في العمق يبرز منها جزء صغير من تلك الزاوية .

تعشق هي هذا المكان وكانت تزيده بهائًا بأن تضع الـ I pod في أذنيها وتترك صوت فيروز ينساب إلى داخل روحها..

وسامح، ذلك الصديق الوفي..

كانت تفهمه من إشارة عينيه ويفهمها من قبل أن تشير..

عاشا طفولة فمراهقة حميدة كإخوة إلى أن مات عمها وهي في السنة النهائية من كلية السياحة والفنادق، وكان سامح قد تخرج من الهندسة بالفعل وعمل في إحدى تلك الشركات المختصة بأعمال السد العالي.

لم تكن تعرف معنى اسمها حتى تلك المرة التي كانا جالسين يشهدان فيها الغروب في المخبأ، وحين أكملت الشمس غفوتها بتر كلامه فجأة ليقول لها:

- تعرفي إن فيه حديث شريف بيقول: عن ابن عمر رضي الله عنهما: عن النبي صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّم قال: «الشفقُ الحُمْرَةُ، فإذا غاب الشفق وجبت الصلاة».

- يعني إيه؟

- يعني إنتي أهو.

نظرت حيث يشير لترى السماء وقد تخضبت في خجل بلون أحمر ساحر.

أطالت النظر إلى المنظر البديع ثم تنهدت وقالت في خفوت:

- ياه، أنا رائعة كده .. شكلي جميل كده؟

نظر لوجهها مليًّا ثم أشار لوجنتيها ثم قال ضاحكًا:

- ياريت كان معايا مرايا دلوقتي علشان أوريكي، هههههه يبنتي دنتي خدودك في اللحظة دي بالذات حمرا أكتر من الشفق اللي في السما ده.

ثم قطع ضحكته قائلاً بجدية مفاجأة:

- نصيحة .. متبصيش في المرايا تاني، لو عاوزه تشوفي نفسك بصي دايمًا لحمرة الشفق يا «حُمرة الشفق».

منذ ذاك اليوم وهو كلما أراد أن يثير خجلها ناداها بهذا الاسم لتتخضب وجنتاها دمًا.

●●●●●

obeikandl.com

الدمعة السادسة

-حكايتي مع الباتعة - ١٩٦٣

أمشي في الظلام الآن وحيدًا.. تحيطني أصوات الذئاب .. أجرّ قدماي وأجرّ حفنة القصب ورائي..

لا أدري لمَ تصدرت للأمر وقلت إنني سأذهب.. علَّني لم أفعل.

فأصدقائي دائمين التجمع عندي.. نستذكر سويًّا.. نتسلى سويًّا.. وأمي دائمًا ما تعد لنا الولائم الكبيرة، مما يثير حفيظة الحاج.. بالرغم من أنهم كانوا جميعًا من أشراف البلدة ، فهذا حميدة ابن العمدة وذاك يحيى ابن شيخ البلدة وهذا مجدي ابن عضو مجلس الشعب، وغيرهم كثيرون..

فأنا لا أصادق إلا من يقاربني في المستوى.. لا أدري لِمَ لا يتقبل أبي فكرة أن يأتوا إلينا في البيت؟؟ بالأمس أخبرته أن أصدقائي قادمون، فنهرني وقال لي بأن نخرج كي نلعب الكرة في الشارع لآن هناك ضيوفًا تجارًا قادمين الليلة..

وقد كان..

فرُحنا نلعب في الشارع بعد بيتنا بقليل.. نجلس في مفترق شارعين، كلاهما كئيب.. فالأول قُتلت به بنت من نحو سنة.. قيل لي إنها قتلت بعد صلاة العيد من أهلها... قضية شرف.. ويقال إن روحها تخرج للناس كل ليلة لتقطع عليهم الطريق.

والثاني به طاحونة .. ابتلعت طفلاً من سنوات.. ويقال إنها تأكل من يمر أمامها كل ليلة.

لا أتذكر من فتح الكلام منذ قليل عن من يأتي لنا بعسلية من مصنع العسلية الذي يقبع في آخر المركز.. على اعتبار أن من يذهب هو أجرأنا جميعًا وأكثرنا شجاعة ورجولة.. لأنه يضطر إلى المرور من أمام الطاحونة والباتعة .. فليختار أيهما أولاً، ولا مجال للكذب هنا لأن العسلية تأتي ساخنة .. فعمال المصنع يصنعونها ويعجنونها أمامك.

فتجرأت وقلت – طبعًا أنا.

ويا ليتني ما قلتها.. وكأنهم كانوا ينتظرون أول من يتبرع كي (يدبسوه)..

لم أجد مفر .. كان أمامي خياران كلاهما مر، ولا بد أن أمر عليها ..

مررت في الذهاب من أمام الطاحونة .. وكنت أرتعد هلعًا.. ولكنني تمالكت أعصابي ومشيت في ثبات ولم ألتفت إليها قط مثلما نصحني فتحي..

وعندما تجاوزتها تنفست الصعداء.. ووصلت إلى المصنع وجئت بالعسلية الساخنة من هناك.. ثم وجدت بجانب المصنع بائع قصب، فابتعت تلك الحفنة في يدي .. وأنا الآن في طريقي للعودة إلى هؤلاء الأوغاد..

أمسك العسلية في يدي وأجر القصب ورائي في محاولة علني استأنس بها.

أرتعد خوفًا أحاول أن أقرأ ما يأتي على ذهني من آيات الذكر.. لمَ أشعر أنني نسيت كل ما أحفظ من قرآن..؟ اقترب الآن من المكان وأنا أؤخر قدم وأقدم أخرى..

ما هذا الذي أشعر به..

أشعر بثقل في الحفنة التي أجرها .. أهذا حقيقي أم أنني أتوهم؟؟

الثقل يزداد ولا أقدر على الجر..

تجرأت ونظرت ورائي.

ما هذا الذي يجلس على القصب؟؟ أهذا حقيقي؟

لن أفكر طويلاً..

لا مجال لأي تفكير الآن..

سأترك تلك الحفنة اللعينة وأركض بكل ما أوتيت من قوة.. أتعثر وأقع على وجهي وتتناثر العسلية في كل صوب..

أتركها وأكمل ركضي وصدري يعلو ويهبط بدون توقف وعيناني تزيغان من الهلع، لا أجسر على النظر ورائي.. فهي بالتأكيد تلاحقني.. تلك الـ.. لا لن أشتم فستسمع وتغضب.

أطلق قدماي للريح كي أجري بكل ما أملك من خوف.. ومن فزع.. إلى أن رأيت الكلاب الآدمية أصدقائي يلوحون لي من بعيد وقد بدا عليهم التوجس من هيأتي ومن كل تلك الدموع التي تغرق وجهي وكأنها خُلقت معه.. أسرعت الركض إلى أن وصلت إليهم .. وأنفاسي تكاد تكون مقطوعة..

قال حميدة وقد بدا عليه القلق : مالك يبني؟ جاي بتجري ليه؟؟ وفين العسلية؟ كنا عارفين إنك جبان ومش حتروح لحد هناك .. مالك يا طلبة؟ مال وشك أصفر كده ليه!!! طلبة. الحقوا يا عيال ده أغمي عليه!

●●●

ظل هذا الحلم يراودني يا عاليا لسنوات طويلة سنوات وأنا أرى الباتعة في أبشع كوابيسي.. هذا الحادث قد صار وأنا لم أتم الثالثة عشر بعد .. وبعدها حملوني أصدقائي إلى أمي مغشيا عليّ.

وإلى الآن لا أدري أحقيقة ما رأيته أم كان خيالاً.

●●●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

- بعد الوفاة.. قرر هو أن يترك لها البيت لتشعر براحة واستأجر منزلاً بالجوار.

لم يكن يأتيه كثيرًا لأن هناك ملحق لسكن المهندسين والفنيين بمنطقة السد، ناهيك عن الجو الحار جدًّا في وقت الظهيرة، وهو الوقت الذي يخرج سامح من عمله..

استطاعت هي أن تتحصل على عمل مؤقت كمرشدة سياحية عن طريق علاقاتها داخل السفارة الصينية ..

ولكن العمل ليس ثابتًا، فقط حينما تأتي باخرة مكدسة بالسياح الصينيين يهاتفونها.

كانت تقضي نهارها في العمل أو في المنزل في السنة الأولى من الوفاة، ثم بعد الظهيرة يكون اللقاء مع سامح ليتناولا الغداء سويًّا أو بالمنزل يقضيا معًا كل النهار، وفي الليل كان يعكف على تسليتها، إما بشراء الأفلام الهوليودية الجديدة أو بالتنزه في أي مكان أو حتى بالمكوث بالمنزل وتبادل الآراء حول أمر ما.

فقد كانت المناقشة بينهما لا تنضب أبدًا..

سامح ذكي.. متفتح.. مثقف.. أسمر البشرة ذو شعر أسود مجعد ..

يعلو وجهه عينان سوداوان وأنف متوسط وشفتان دقيقتان ..

لا تدر كم يبلغ طوله بالضبط، ولكنه طويل جدًّا حتى إن قمة رأسها قد تصل لمنتصف صدره تقريبًا.

مما يجعلها تراه أحيانًا حينما يتناقش في شأن ما ويسهب في شرح نظرياته وآرائه كائنًا أسطوريًّا لا قبل لها به.

ولكنها في كل حالاته ترتاح للحديث معه .. تحب أن تروي له تفاصيل يومها بالتفاصيل.. حتى وإن لم يكن فيه شيء ذو قيمة وكان هو يستمع..

فهو مستمع جيد جدًّا.. لا يمل طالما لم تمل هي من الحديث، ولكن أكثر ما كان يزعجها في أنها تشعر معه بأن روحها عارية تمامًا أمامه، يراها من داخلها، تشعر به أثناء الحديث يقتحمها بعينيه ليسبر أغوار ما تخبئه.. وكان هذا – في نظرها – عيبًا كبيرًا جدًّا في علاقتهما البريئة.

وهو لسبب ما كان يشعر بالمسؤولية تجاهها، ليس من باب الصداقة فحسب وإنما من باب الأبوة أيضًا.

فطبيعتها المائلة دائمًا للعناد والمكابرة والشموخ تأبى أن تكون ككتاب مفتوح أمامه..

بيد أنهما تقاربا في ذلك العام جدًّا.. كان دائمًا بجانبها.. يقويها ويعزز ثقتها بنفسها التي كان يعلم أنها قد اهتزت على أثر صدمة

موت العم .. مع يقينه بأنها لن تعترف بذلك له أبدًا.

فأمسك بيدها على مهل وسحبها معه للشاطئ بحرص شديد بعد أن كانت على وشك الغرق.

قال لها: "أنا نجمك اللي حهديكي للطريق".

ذات ليلة بينما كانا يجلسان على دكة خشبية على الكورنيش مقابلة لجبل «أبو الهوى».

قال بعد صمت:

- عارفة كان نفسي أدفن أبويا هناك.

تطلعت إلى حيث ينظر وقالت:

- هناك فين؟

- هناك.. في مقابر النبلاء.

نظرت إلى وجهة فإذا هو اكتسى بمعالم الجدية.

- اشمعنى يعني؟

- مش شايفاها منورة إزاي؟ الجبل كله منور بالليل .. وأنا أبويا الله يرحمه كان بيخاف من الضلمه.

يعني لو كنا دفناه هنا مش كان زمانه متونس؟

obeikandl.com

نزلت عليها الكلمات كالقنبلة وتذكرت عمها الطيب.. لم تنسه ولكنها كانت تتناسى.. نظرت له لتجد عيناه وقد اغرورقت بالدموع وأحنى رأسه أرضًا.

لم تتمالك نفسها، رفعت له رأسه وجذبتها إليها.

إلى أحضانها،

وكأنه كان ينتظر ذلك العناق..

رمى نفسه إليها وظل يبكي.. وينهنه كالأطفال.

لم يبكِ سامح في موت أبيه، كان يكتم بكاه بداخله.. أما اليوم يبكي في أحضان من يحبها ...

حاولت وقتها أن تبكِ لبكائه على عمها الطيب، ولكنها أيضًا لم تستطع .. إلا أن تزيد من ضمها لقلبه الباكي.. في صمت تام احترامًا لضعفه.

لم يذكرا كم بقيا على هذا الحال.

ولكن من تلك الليلة وسامح يعاملها معاملة مختلفة.

اتخذها صديقة وأم وأخت و...حبيبة.

أحبها.. وصارحها بذاك الأمر، فما كان منها إلا أن اعترفت في المقابل بحبها.

أحبته أم هكذا ظنت..!

أما هو فقد تبدل الأمر بالنسبة إليه تمامًا

كان في البداية لا يطلب مقابلاً لما يعطيه لها من اهتمام ولا ينتظره.

يعطيها من وقته واهتمامه وأعصابه دون أن يأخذ شيئًا..

ولكن بعد أن شعر بحبها .. وبأدلته الاعتراف .. قرر أنه قد حان الوقت لكي ينهل من عطائها وأن تبادله بعض الاهتمام.

ولم تكن هي تعطي شيئًا، لم تفكر حتى في نفسيته بعد موت والده.. فرغم كونه بكّاء حساس – بعكسها – إلا أنه لم يبكِ يوم مات أبوه..

ولم تعر هي ذلك اهتمامًا يُذكر..

حتى عندما أظهر ضعفه أمامها وبكى أبوه لأول مرة واستسلم لضعفه بين ذراعيها لم تصنف ذلك بالأمر الجلل.. لم تصنفه إلا كونه ضعفًا منه.

ذلك أنها لا تستطيع أن تعطي.. فقد تربت على يد عمها، الذي كان دائمًا ما يهب دون أن يطالب بالمقابل.. ودون حتى أن يطالبها بالاعتراف بأخطائها.

يمنحها حبًّا وحنانًا وأبوة ورحمة ومالاً وونسًا دون أن يفكر أن يأخذ منها شكرًا حتى.. فعزز في شخصيتها الأخذ.. ونسي أن يعزز مبدأ العطاء - رحمه الله -.

ومع أن سامح يعي كل هذا عن حبيبته وابنته ، إلا أن شيئًا ما في تكوينه قد بدأ يشعر بعدم الارتياح..

كان يريد منها أن تبادله العطاء.. ولو اليسير منه.

لم يكن يرجو سوى بعض التفهّم والتحمل .. وطالما لمّح لا بالأمر دون المباشرة.. ولكن شيئًا جديدًا لم يحدث.

أما هي فقد شعرت في الفترة الأخيرة بأن حالهما تحت مظلة الصداقة كان أفضل بكثير من الآن.

لا تدري لمَ كانت تتقبل منه التدخل في شؤونها في البداية ، أما وقد أعلنا عن حبهما فقد بات الأمر غير مريح بالنسبة لها.

ثمة تفكير داخل عقلها مؤخرًا يقنعها بأن ما تشعر به تجاه سامح ليس حبًّا وإنما أمر آخر من الممكن أن نسميه تعودًا.. تفهمًا.. وبناء على هذا التفكير أصبحت تعتبر تدخله في حياتها ما هو إلا تعنتًا..

وأصبحت أيضًا تمل قيوده التي يفرضها عليها .. أصبحت تشعر أن معرفته لكل تحركاتها كالسجن .. برغم أنها لم تكن تشعر بهذا عندما كانا صديقين..

وتمنت من داخلها أن تتحرر .. تفرد جناحيها وتحلق بعيدًا عنه.. أصبحت تلوم نفسها على تسرعها في أمر الارتباط .. ربما عليها أن تجرب أمرًا جديدًا.. فسامح يراها بروحها الحقيقية دون صبغات أو أقنعه.. وهو ما صار يستفزها بشدة.

تريد أن تشعر بأنها سيدة نفسها..

لم تتحدث بالموضوع معه رغم عدم شعورها بالارتياح.

إلى ذلك اليوم الذي قام هو فيه بمفاتحتها عندما قام بعزيمتها على الغداء في مطعم «الدوكة».

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

الدمعة السابعة

- طامتي الكبرى - ١٩٦٦

كنت أبحث في خزانتها عن الشال الأبيض الحريري كما أمرَتني لتضعه على كتفيها قبل أن تذهب إلى الجيران ؛ لتهب لهم من خير ما تصنع يداها كما تعودت دائمًا..

بحثت كثيرًا في الرف العلوي ولم أجده.. وكنت أبحث في الرف الأوسط عندما وجدت تلك الأجندة الصغيرة مخبأة تحت الملابس تعودت أمي أن تضع النقود تحت ملابسها دائمًا .. ولكن ما تلك الأجندة ولماذا تخبئها هنا؟

انتابني الفضول فأخرجتها بحذر وفتحتها، أشياء عادية.

حسابات لجمعيات مع الجيران.. وصفات لمأكولات مصرية .. حسابات لأشياء كانت قد ابتاعتها من هنا وهناك..

لا شيء مهم على الإطلاق، لماذا إذن تخبئها تحت الثياب؟

تصفحت الأوراق المتبقية بلا اكتراث لا شيء جديد.. عدا آخر صفحتين ..

فيهما وجدت الكارثة ..

obeikandl.com

وجدت أمامي تلك السطور:

- لا أحد يفهمني على الإطلاق.

ومن يستطيع أن يدرك مشاعر أنثى قد فاض بها الكيل واكتفت؟؟

تحملَت الكثير من أجل بيتها وأبنائها، تحملت إهانته لي وعجرفته اللامحدودة، عانيت من سبه وضربه.. لم أشتكِ يومًا .. لم أتبرم أو أغضب منه يومًا ..

وكنت أصبر كرامتي وأحن على حالي في ليالي لم أجد فيها من يحن عليّ.

لم أتوان يومًا عن تنفيذ أمر له أو لأحد ضيوفه - وما أكثرهم-!!

رعيت بيته وأبناءه وأملاكه .

تحملت الكثير من أجل بيتي وصغاري.

تحملت كل هذا من أجل البيت.. هل يعقل أن يصارحني برغبته في الزواج بعد كل ما قدمت؟؟

أيكون هذا جزائي؟؟

كنت أشعر دائمًا إن هذا اليوم سيأتي.. أنا أعرفه جيدًا ..

سامحك الله يا أبي أنت من أقنعتني بأن عبد الصبور لم يعد بحاجة للزواج بأُخرى من بعدي..

ولكن الطبع يغلب التطبع.

شعرت دومًا بأن هذا اليوم سيأتي.. كانت تلك الغصة في حلقي تقلقني .. يؤلمني انتظار اللحظة.

وكنت دائمًا ما أسأل نفسي .. تُرى كيف سيكون ردي حينها؟

واليوم توصلت للإجابة.

أنا لن أحتمل هذا الوضع.

أعرف أن زواجه ليس بالأمر الجلل بالنسبة له ولمن يحيطونني .. وأنه لن يعارضه أحد ولكنني أعلم ذاتي جيدًا.

لن أستطع أن أتحمل أن تشاركني فيه إحداهن ولو لليلة.

لا لأنني أحبه.

بل لأنه.. «راجلي».

أنا سأطلب الطلاق .. رغم أن عِنده الشديد المتأصل فيه سيجعله كالغول الهائج.

سيفتك بي عندما يصل له قراري ..

obeikandl.com

فليرأف بي ربي..»

وهنا انتهت السطور ..

ظللت أحدق في الأوراق بيدي لا أدري ماذا أفعل.. شُل تفكيري يا عاليا في تلك اللحظة ولم أتوقع في أكثر كوابيسي فزعًا أن أصحو يوما ما لأُفاجأ بقرار أبي بالزواج وقرار أمي بالانفصال!!

شعرت بدوار شديد وكاد يغشى عليّ.. تحاملت على نفسي وأغلقت الأجندة وخبأتها مكانها تماسكت ونزلت الدرج لأجدها أمامي..

تأملتها وهي تجلس أمام الفرن الطيني بجلبابها الأسود النظيف وشعرها الأسود الفاحم وقد عقسته خلف رأسها .. جميلة هي أمي.

دائمًا ما كنت أراها جميلة بعيونها الواسعتين كعيون المها.. أنفها الصغير كثمرة اللوز يعلو الشفتين الدقيقتين الذين يزينا وجه خمري مستدير.

أمي كانت قد تجاوزت العشرين ربيعًا بقليل عندما تزوجت أبي الحاج.. بعد أن تحصلت على التوجيهية، وكانت الوحيدة من بنات العيلة التي استطاعت أن تصل لهذا الحد من التعليم، كم أحبها.. تطلعت إليها بعينين تخفيان الكثير من النقاط المالحة وهي تطهو لنا

أصناف من الصواني الشهية كما تعودت دائمًا.. رأيتها وكأني أراها للمرة الأولى وقد كسا ملامحها همٌّ زاد من عمرها همًّا عشرين عامًا آخرين.

ماذا دهاها تلك المرأة المستسلمة؟؟

إن أخبرني أحدهم أن هذا سيحدث لبيتنا في يوم ما لاتهمته بالكذب والتدليس.

لا ألوم أبي بقدر ما ألومها هي..

أمي!!

كي تحولت إلى امرأة بكل تلك القسوة؟؟

أين ذهبت تلك المرأة الحنون المطيعة؟..

كنت أراها دائمًا سيدة قنوعة راضية بقدَرها مثلها مثل كافة نساء الصعيد.

اعلم جيدًا مدى قسوة أبي وصرامته.. ودائمًا ما كنت أشفق عليها.

ولكن أن يصل بها الأمر إلى أن تتخلى عنا وعن أبي وعن بيتنا الدافئ بتلك السهولة!!.. هذا ما لم أتوقعه منها قط.

رغم صغر سني دائمًا ما كان يشهد لي الجميع برجاحة العقل وبُعد النظر.

كنت أرى المستقبل وأخشاه حد الموت.. كنت أرى تبعثرنا وخراب بيتنا ، إلى أين سيؤدي بنا عنادها وكبريائها الكاذب!!!

كم – كنت – أحبها!!..

لاحظَت وقوفي بجانبها وشرودي فالتفتت إليّ بوجه صادق وعيون بريئة ملائكية:

- عاوز حاجة يا ولدي؟؟

كسيت وجهي بجدية طفولية:

- عاوز سلامتك يا أمي.

تركتها وخرجت مسرعًا لأترك لعيناي العنان لتذرف ما شاءت من الأنهار المالحة ..

بعد تلك الحادثة بنحو أسبوعين صارحت جدتك جدك بطلب الطلاق..

لم يصدق هو مطلبها .. وكان يظنها قد خف عقلها أو أصابها مس.

ولكنها أصرت .. وعاندت.

لأول مرة أراها أنا بذلك الجمود..

وكأن قد طفح كيلها ولم تعد تتحمل..

فعلّت كل ما استطعت فعله لأُثنيها عن رغبتها .. حتى إني وسطت نسوة بالبلدة لإقناعها، ولكن بلا طائل.

أبي أخذته العزة.. وترك المنزل وابتاع واحدًا آخر وتزوج بالفعل في أقل من شهر..

وأمي على ثباتها ومطلبها.. هددها أبي بأن يقطع عنها وعنا المصروف .. وأن يحرمنا من كل شيء وأي شيء..

ولكنها ظلت على موقفها في ثبات تحسد عليه.

عندما يئست منها فعلت فعلة كانت هي الفيصل في علاقتي بوالدي..

ذهبت إلى منزله الجديد في أثناء عدم وجوده وقابلت زوجته الجديدة وهددتها إن لم تبتعد عنا لأرينها أشد الويلات..

هددّت وصرخّت وتوعدّت ولم أنتبه إلى مجيء أبي.

كان رده مهينا جدًّا، صفعني على وجهي صفعة .. كادت أن ترسلني إلى اللاوعي.

وطردني من منزله .. وقرر بأنه سيطلّق أمي وينفذ مطلبها ، ولكنه لا يريد أن يراها أو يراني أو يرى إخوتي ثانية..

وفعلاً بعد ذلك اليوم بحوالي أسبوعين وصلت لأمي ورقتها .. والغريب أنها لم تتأثر..

لم تفرح أو تبكي ظلت ثابتة.. حتى صعدت إلى غرفتها وأغلقت عليها باب حجرتها!!

أما أنا .. أنا من أجهشت بالبكاء.

بكيت يا عاليا في تلك الليلة كما لم أبك في حياتي كلها...

●●●

شردت شفق لدقائق بعد تلك الدمعة بالذات.. وكأن حكايات طلبة قد أنستها ما هي فيه ..

قالت في نفسها:

ما تلك المرأة حقًّا..

كيف تسمح لكبريائها أن يتحكم في مصير عائلة بأكملها؟

obeikandl.com

إن كانت ستتعامل مع أولاده بكل هذا القدر من الاستهتار فلمَ جازفت بمجيئهم إلى الحياة أصلاً؟

من أعطاها الحق في التحكم بمصير أبنائها..

ثم إنها تحملت هذا الوضع لسنوات .. لماذا الآن بعد صار الأبناء في حاجة لها ولأبيهم وللنقود أكثر من ذي قبل.

ولكن مهلًا أوليس الكبرياء أيضًا ما أرغمني على أن أحزم حقائبي وأعتلي سطح باخرة هاهنا في انتظار أن أترك كل ما أحب ومن أحب...!

رجعت إلى نفسها قليلاً..

لِمَ نصر على أن نهاجم من حولنا إذا ما أقدموا على فعلة معينة ونسمح لأنفسنا بالقيام بذات الفعلة دون أن تهتز لنا شعرة.

للحظة رأت نفسها من الخارج.. ولم يسُرّها ما رأت..

فرجعت لكراستها وقلبت الصفحة من جديد لتجد أمامها الدمعة التاسعة..

مهلاً.. أوليست الدمعة الفائتة هي السابعة.. أين الثامنة إذن؟

وجدت مكان صفحتين مقطوعتين .. مطت شفتيها في حنق فقد بدأت حكايات ميلاد – طلبة – تروق لها.

●●●

obeikandl.com

الدمعة التاسعة

-حكايتي مع الضابط ماهر- ١٩٦٨

بعد أن تركت المعهد العالي للإلكترونيات بمنوف.. كونها كلية عملية وأنا بلا مال .. بعد أن اضطررت إلى ترك الصعيد مجبرًا وأن أقيم عند أخي من إحدى زوجات أبي في الإسكندرية كما حكيت لكِ.. وبلا عمل، خاصة وأن البلد كانت في حالة حرب فالتوظيف صعب طبعًا.. وأنا لا أحمل إلا شهادتي الثانوية.

فتقدمت إلى المعهد الفني للقوات المسلحة.. بالقاهرة لا لسبب غير أنه كان وقتذاك يعطي مرتبًا محترمًا لطلبته كما يقدم لهم إقامة.

وصلت إلى محطة رمسيس قادمًا من الإسكندرية في تمام الساعة الثانية ظهرًا ، وكان معي رفيق من القطار يجلس بجانبي.. كان عندنا متسع من الوقت للتحادث لأن القطار تأخر في الطريق وقد كان من المقرر له أن يصل رمسيس في العاشرة صباحًا..

كان يدعى ماهر..

شاب وسيم، عمرة يتجاوز الخامسة والعشرين .. ذو جسم متناسق، وكان يرتدي الملابس العسكرية المشيرة إلى كونه جنديًّا، الخالية من أي رتبة.. متناسق الهندام وسيم الملامح قوي البنية وكأنه

obeikandl.com

بطل كمال أجسام.. يدخل البنطال بداخل حذائه الطويل الذي يرتديه، وعندما لاحظ أنني أطيل النظر إلى أسفل قدميه قال ضاحكًا:

- بتبص عليه بكره تأفز كده زيي.

- أأفز؟

- آه ، ، يا حبيبي ده اسمه عندنا في الجيش تأفيز ..

هززت رأسي وأنا لا أفهم حرفًا ، ولكني افترضت أنه يعي تلك الأمور أكثر مني، ولأن القطار قد تأخر في الطريق.. فقد تأخرت بدوري على ميعاد التقديم في المعهد .. لذا فقد قررت المبيت هناك في القاهرة عند بيت أخي.

كان عمري وقتها قد تجاوز الثامنة عشر.. استأذنت من رفيقي هذا في الذهاب.. فلا بأس من التجول قليلاً ودخول السينما قبل التوجه إلى بيت عمكِ للمبيت.

ولكنني فوجئت به يرغب في مصاحبتي.. خجلت منه.

قال إنه لديه متسع من الوقت وأنه يرغب في مصاحبتي.. ولا أخفيكِ سرًّا.. لم أجد أنه أمرًا سيئًا على الإطلاق، فللحظة وجدت في ماهر الرجل الذي أرغب في أن أكونه بعد بضع سنين.. وأردت أن أوطد علاقتي معه.

خرجنا من المحطة وأخذنا نتجول في شوارع المحروسة وأنا كلي فخر بسيري بجانبه وبجانب لباسه الميري الذي يضفي علينا هالة وهيبة ما.. فبعد النكسة يا عاليا كان الناس يعتزون بالجنود ويقدرونهم.

سألته إن كان يريد اصطحابي الى السينما فلأجاب أن نعم... وواقترح بأن نذهب إلى سينما شبرا بالاس حيث أنها تعرض فيلم البوسطاجي.

قلت له:

- إنتا مش قلت إنك رايح لوالدتك في ألماظه، إزاي هيبقى عندك وقت للسينما.

فضحك وقال:

- متشغلشي بالك.

ذهبنا لشارع شبرا حيث السينما وكانت الساعة حوالي الثالثة والنصف.. ووجدنا أن الحفلة القادمة ستبدأ في السادسة.

قلت له:

- أنا جعان متيجي ناكل.

- يالا بينا.

ذهبنا إلى مطعم متواضع ودخلنا لتناول الطعام وبعد الأكل طلبنا الشاي وفجأة وجدت هذا الجندي يخرج من جيبه رُتب عليها نجمتين..

وطلب مني أن أساعده في تركيبها..

- رتب؟ رتب إيه هو انتا مش جندي؟

- يعني ينفع الشكل ده يكون جندي ياعم؟ أنا ضابط.. ملازم أول .

- ضابط؟ إزاي، وليه ماشي كده من غير متحط النجوم علشان الناس تعرف إنك ضابط.

- يا أخي أنا أحب أمشي براحتي ، لكن الضابط عليه قيود.. يعني مقدرشي مثلاً أعاكس واحدة.

- يعني علشان تعاكس بنات تقلع الرتب بتاعتك؟؟

ساعدته في تركيبها على كتفيه حينما جاء الجرسون بالشاي فنظر لنا بارتياب.

- اللّه، انتا مش لسه كنت عسكري؟

obeikandl.com

قال ماهر بلهجة صارمة:

- سيب الشاي واتوكل على الله، ياللا.

أحسست بأن نبرته.. حتى نظرته فجأة قد تغيرت ولبس ثوب الضابط!

قلت له طيب أنا أستأذن بأه.. هدفع الحساب وأمشي علشان وقتي.

فنظر لي نظرة جمدت الدم في عروقي.

- إيه مالك؟ مش اتفقنا نروح البوسطجي؟ روح ادفع الحساب وتعالى.

- وانتا ضابط؟

- وهو ممنوع الضابط يخش السينما؟

شعرت بالخوف منه.. هذا الرجل مجنون لا محالة.. دفعت الحساب وقمنا متجهين إلى السينما.. وأنا أمشي معه مرغم وقد صرت أشعر أن هناك أمرًا ما غير طبيعي.. لا أدري كنهه.

وانتابني إحساس غريب.. كل ما كنت أتمناه لحظتها أن نجد السينما مغلقة للتحسينات مثلاً!

●●●

obeikandl.com

يالهوي

قالتها شفق ضاحكة بصوت عال استرعى اهتمام العجوز الذي كان يستلقي أمامها مع زوجته، فنظرا إليها لثوان .. ثم لم يلبثا أن هزَّا رأسيهما ليكملا حديثهما عندما تأكدَا بأن تلك الفتاة مخبولة.. أو مأخوذة تمامًا فيما تقرأ.

●●●

ولكن وأنا في هذه الحالة إذ بأربعة أشخاص ذوي أجساد فارعة الطول يعترضون طريقتا:

- لو سمحت .

قال لهم بكل عجرفة :

- نعم عايز إيه.

- انتا مش كنت معانا في القطر إمبارح؟

- قطر إيه؟

رد آخر:

- قطر إسكندريه.

- لأ.

opeikandl.com

- لأ إزاي يعني .. انتا اللي كنت معانا وكان قطر الساعة ٢، إحنا سيبنا جنب الكرسي اللي كنت قاعد عليه شنطة سمسونايت إمبارح ، وكنت لابس بدلة عسكرية بتلات نجوم يعني نقيب.

- وانتا أعمى؟ شايفني نقيب؟ أنا ملازم أول ومركبتش القطر ده ويالا امشي من هنا.

حتى هذه اللحظة والضابط ماهر يتكلم بثبات وثقة إلا أنني وجدت المناقشة قد احتدت بينهم ودخلت منحنى آخر.

فقلت:

- بص أنا طب همشي علشان ألحق مشاويري ونبقى نتقابل.

فصرخ بي:

- رايح فين يا شوقي مفيش حاجة ده سوء تفاهم وحينتهي في ثواني.

- شوقي مين يا عم..

- قلتلك استنى ياجدع فيه إيه .

اضطررت أن أنتظر مرغمًا في حين ازداد الحديث حدة وأصبحت شبه مشاجرة بين الأفراد الأربعة والضابط ماهر، ولاحظت أنهم أحاطوني أنا وهو بالمنتصف.

وفي دقائق قليلة كان العشرات من المارة قد تجمهروا حولنا، وتطوع فريق منهم في الدفاع عن الضابط المُعتدى عليه.

فليس مشهد عادي على الإطلاق أن تجد شجارًا بين ضابط جيش وأربعة أفراد مدنيين أحدهم يصرخ:

- فين الشنطة يا حرامي انتا؟

همس لي أحد الواقفين: «يا كابتن شوف زميلك ده خلية يحل المشكلة دي شكلكم كده مش حلو» .

وكأنني بحاجة لنصحه.. أن كان لي سلطة على هذا الماهر لما كان هذا موقفي.

مرت علينا عربة دورية شرطة وبها ضابط وعدد من الجنود واقتحموا الجمع:

- «إيه إيه فيه إيه؟»، هكذا صرخ الضابط.

- «لو سمحتوا شويه كده» متوجهًا إلى ضابط الجيش وقال له:

- خير يا فندم.

- أنا مش عارف الناس دي بتقول في شنطة ضايعة منهم.

قال أحد الأربعة لضابط الشرطة محتجًا:

- يافندم الراجل ده حرامي.

- ميصحش كده يبني انتا.. ده ضابط.

- يافندم اسمعني، احنا كنا في القطر اللي جاي من إسكندرية وسيبنا شنطة سمسونايت جنب الراجل ده وكان معلق تلات نجوم، ورحنا دقايق بس نشتري شوية حاجات واستأمناه، ولما رجعنا لاقيناه فص ملح وداب هو والشنطة.

- والشنطة كان فيها إيه؟

- كان فيها دهب يا بيه .. دهب وفلوس.. احنا أصحاب محل صاغة في الحسين.

- وهو حد يسيب شنطة فيا دهب جنب واحد ميعرفهش؟

انطلق آخر مدافعًا:

- احنا قلنا يعني ده ضابط جيش وشكله محترم، يعني حنستأمن مين أكتر من ضابط.

هز الضابط رأسه مؤمنًا على كلام الشاب، ثم التفت لماهر:

- إيه رأيك سيادتك في الكلام ده؟

- انا معرفهمش ومشفتهمشي قبل كده.

- كداااااب.

أخذ الأربعة في الصراخ والتهب الموقف أكثر .. أما أنا فانتهزت فرصة انشغال الجميع ورجعت بظهري للوراء خطوة.. فخطوة..

وكدت أن أخرج من التجمهر بالفعل لولا أن صرخ الملعون:

- طلبة .. يا طلبة رايح فين؟

وجدت اتنين من الأربعة قد أمسكوني بشراسة.

- تعالى هنا انتا رايح فين؟

صرخت فيهم:

- أنا مش معاه ورحمة أمي ما معاه.

استرعى صراخي انتباه كل الحاضرين ، وتحول الموضوع من شجار عادي إلى متهمين .. وأصحاب حق.

ولأول مرة في هذا الموقف يا عاليا أشعر من نظرات كل من حولي بأنني متهم فعلاً..!

ازداد الأمر سخونة وازداد الالتفاف والتجمهر حولنا وأصبحت وكأنها مظاهرة ولم أعد أنا أسمع شيئًا.. رأسي الصغير لم يعد يتحمل ، وعيني لم تعد ترى إلا أشباحًا.

والصراخ يزداد ويزداد:

- احنا هنروح القسم وهناك نحل المشكلة.

قالها أحد الأربعة فارتعش ماهر فجاة، وقال بأنفاس متقطعة:

- القسم؟ لا احنا نحل المشكلة هنا.

رد الضابط عليه تلك المرة في تعقل:

- هنا مش هينفع علشان منعملشي تجمهر أكتر، البلد في حالة حرب واحنا مش عاوزين مشاكل.

ظل ماهر يردد:

- أنا مش عايز القسم .. مش عايز.

رد الأربعة في نفس واحد:

- لا احنا لازم نروح القسم.

قال الضابط رامقا ماهر بنظرة جانبية وقد لاحظ اضطرابه

- متخافوش .. هنروح.

واسقلينا العربة الجيب جميعًا وقد أجلسوني أنا وماهر في الداخل والكل قد أحاط بنا.

وأحسست وقتها أنني ذاهب إلى الهاوية لا محالة..

لمحت الضابط ماهر وقد مد يده إلى الرتب القماش على كتفيه محاولاً خلعها..

وفعلاً خلع الكتف الأيسر بسرعة، وقبل أن يخلع الكتف الأيمن انتبه له ضابط الشرطة،

استوقفة بلهجة صارمة تجمد الدم في العروق.

- انتا بتعمل إيه ..

ثم استطرد:

انتا فين تحقيق الشخصية بتاعك أصلاً.. فين كارينهك.

تلعثم الأخير:

- الكارنيه مش معايا في البيت ..

ثم زاغت عيناه لجزء من الثانية وردد في شبه انهيار.

- انا ماخدتش منهم حاااااجه .

في هذه اللحظة مد ضابط الشرطة يده في جيب ماهر بحركة خفيفة وأخرج حافظته.. التي بها بطاقته الشخصية ومكتوب فيها طالب من المنوفية وبها أوراق كثيرة وبعض العملات المختلفة.

ثم طلب مني حافظتي فأخرجتها له.

- انتا كمان طالب.. وصعيدي كمان، أهلاً وسهلاً.

انهار ماهر بجانبي بعد أن أحس بأنه مدان لا محالة قائلاً:

- يا بيه أنا حجيبلهم شنطتهم بس بلاش قسم.

- أيوه كداا تعالى معايا دوغري.

- الشنطة في شقتي.

- فين الشقة؟

- في العمارة المواجهة لسينما شبرا بالاس.

- طيب نروح القسم نحرر محضر الأول وبعدين تروح معاك قوة للشقة علشان تسلم المسروقات.

أخذ ماهر يبكي ويقبل أيدي الأربعة أصحاب الشنطة مردداً:

- بلاش القسم أبوس إيديكم شنطتكم وهتاخدوها بس سيبوني في حالي متضيعونيش.

فقال كبيرهم للضابط وهو يبعد يده عن ماهر:

- يابيه احنا عايزين الشنطة بس.. مش عايزين محاضر.

obeikandl.com

- بس ده مش قانوني.. احنا ضابط شرطة .. مينفعشي أحل مشاكل وأسلم مسروقات في الشارع كده.

هنا اقترب الرجل من أذن الضابط وأسره بالقول في أمر ما.. فلانَ الضابط قليلاً وقال:

- خلاص بلاش القسم ، نروح الشقة يا ماهر!

وتوجهت الجيب إلى العنوان ١٨ش شبرا بجوار أجزخانة الأمل.

توقفنا البناية وترجلنا جميعًا قام عسكري وثلاثة من الشباب باصطحاب ماهر وقام رابعهم باصطحابي أنا، وظل الضابط بالسيارة وباقي الجنود في أسفل العمارة.

وفجأة سمعنا جميعًا العسكري يصرخ:

- المتهم بيهرب، وإذا بماهر يفلت منهم ويجري محاذيًا البناية.

نزل الضابط بسرعة ومعه الجنود وهرولوا خلفه.

- امسكولي الكلب ده هو كمان بدل ميهرب.

يقصدني طبعًا.

ارتميت على الكرسي في العربة والجندي يسبني وقد فقدت القدرة على النطق وأنا أعتقد أنني سأموت حقًّا من أجل البوسطاجي.

حتى البكاء لا أستطيعه .. تجمدت الدموع في عيني.

لا أدري كم من الوقت مر حتى سمعنا جلبة تأتي من أول الشارع، ثم ظهروا وقد أمسكوا به بملابسه الممزقة والدم يسيل منه وقد كبلوا يديه بحبل .. كان في حالة مزرية.

- هاتولي الكلب التاني من العربية، فين العمارة ياحاج.

كان هذا السؤال من الضابط إلى رجل من الذين شاركوا في الإمساك بماهر، وكان يقول إنه جاره في نفس الشارع.

- سيادتك هيا العمارة الصفرا دي يابيه بس معرفشي ساكن الدور الكام.

فصعد الضابط ونحن معه وبرفقتنا العساكر..

عندما صعدنا الطابق الأول.

أخذ العسكري المسك بماهر يلكمه.

- فين الشقة ياض متنطق.

وماهر بخبثه ينظر لي نظرة تؤكد بأننا معًا.

- فين يا طلبة؟

فقلت وأنا يملؤني الهلع:

- ياعم وأنا أيش عرف أهلي شقتك فين.. وأنا مالي أنا لسه شايفك النهارده يخربييت ...

صفعة من العسكري الممسك بي أسكتتني..

في حين قال ماهر الدور التالت يابيه ..

صعدنا .. ما إن فتح هذا الملعون الباب ودخلنا إلى الصالة حتى كانت مفاجأتنا لا توصف..

نظرت لمن حولي فإذا بكل الموجودين قد جحظت أعينهم حتى كادت تقفز من المقلتين.

- يابن الكاااااااالب.

كانت تلك من ضابط الشرطة الذي رأى أمامه صالة مليئة بكل أنواع الأجهزة تقريبًا وصف من الشنط بكل الأحجام .. وعلى أريكة الأنتريه طبنجة وبجوارها طلقات.

دخلنا إلى غرفة النوم فإذا بالدولاب يمتلئ بعدد كبير من بذلات الشرطة والجيش لرتب مختلفة.

- يخربيتك ..

قالها ضابط الشرطة مشدوهًا إلى ماهر ثم أمسك بجهاز اللاسلكي وقال:

- من فهد إلى أسد، يوجد وكر خطير بالشقة رقم خمسة بالعمارة رقم ١٨ ش شبرا.

ثم أجلسونا أنا وهو على الأرض في الركن .. وقد انكمشت على نفسي وانتابتني حالة من البكاء الشديد ، وجعلت أصرخ بهستريا.

- اللّه يخربيتك حرام عليك، أنا عملتلك إيه.

وهو ينظر لي بكل برود دون أن يبدو علية أي تعبير.

في حين قال الضابط بازدراء:

- اخرس ياللا وبطل تبكي زي النسوان الحمد للّه إننا مسكناكم.

بعد حوالي ساعة وصل إلى الشقة عدد من الضباط برتب مختلفة مع الجنود.

جلس أكبرهم رتبة وطلب فحص محتويات الشقة وإحضار المتهمين للتحقيق معهم.

أنا لم أحلم في حياتي بكابوس ألعن من ذلك يا ابنتي.

تخيلي في يوم واحد أن تنتهين وينتهي مستقبلك أمام عينيك قبل أن يبدأ!

obeikandl.com

فجأة أصبحت مجرمًا ضليعًا في السرقة...

تمنيت وقتها أن يضربني أحدهم بعنف كي يرسلني إلى غياهب اللاوعي فلا أشعر بشيء، أو أن يأتيني الموت فجأة فينتهي كل شيء.. ربي أرحم بي من هذه الحياة الخبيثة.

ماذا سأقول لأمي التي عولت علي في مصاريفها هي وإخوتي بعد أن كف أبي يديه عنهم!

قلت لها إنني سأكون ضابطًا فإذا بي صرت سارقًا ومجرمًا وصاحب سوابق في ليلة وضحاها.

يا سلام على الزمن والأقدار.

- تعالى هنا يبني .

انتبهت على الجملة الصارمة من الضابط الأكبر رتبة ، فقمت وذهبت له ورأسي في الأرض.

- اسمك إيه؟

- ميلاد.

- الاسم ثلاثي..

وأخذ يسأل وأنا أجيبه باكيًا.. فقد كان هذا أكبر من قدرتي على الاحتمال.

سأل في كل شيء.. وأنا أقسم له أنني بريء وأنني كنت هنا للتقدم بالمعهد .. طبعًا لم يصدق حرفًا.

- انتا حتستهبل، فيه واحد يقعد مع واحد ميعرفوش ولا عمره شاف خلقته؟

- أعمل إيه بس في حظي الاسود؟

- نعم يا اخويا؟

- منا قلت لسيادتك الموضوع جه صدفه، وانا معرفشي ليه كده كنت خايف منه سيادتك؟

لاحظت في أثناء كل ذلك أن هناك شخصًا ضخم الجثة متجهم الملامح في زي شرطي يقف في الركن ينظر لي باهتمام وتركيز.

بعد انتهاء استجوابي طلبوا ماهر لاستجوابه في حين وجدت هذا الشخص قد أخذني من يدي إلى الحجرة المجاورة.

- انت منين؟

قلت متلعثمًا:

- من سوهاج.

- لا يعني ملكشي بيت هنا؟

obeikandl.com

- آه ليا، أخويا هنا وعمي كمان في المنيرة، وكنت رايح أبات عنده للصبح علشان أقدم أوراقي للمعهد بدري.

- عمك اسمه إيه؟

- اسمه محمد الهواري.

- وأخوك اسمه إيه؟

- اسمه محمود عبد الصبور.

نظر لي برهة وقال:

- أنا كنت بشبه عليك من بدري.. أنا عمك سعيد جار عمك، وكنت بشوفك لما بتيجي تزورهم.. إنت إيه يبني اللي وقعك في الوقعة السودا دي؟

صرخت فيه كمن وجد طوق نجاة في بحر متلاطم الأمواج:

- أقسم بالله العظيم يافندم ما أعرفه ولا شفته قبل كده.

وأعدت على مسامعه ما حدث معي بالتفصيل الممل مرة أخرى.

- مش عارف نفسي أصدقك .. عمك راجل محترم وطيب وأخوك كمان.. مش عارف أعملك إيه.. استناني هنا شويه.

وخرج وتركني في الغرفة لنصف ساعة أخرى وأنا عقلي يكاد يشل من التفكير .. أخذت أقرأ آية الكرسي وألهث بكل الأدعية التي أعرفها في حياتي كي يخرجني القدر من تلك المصيبة على خير.

- يا ميلاد.

سمعت صوت هذا السعيد، فخرجت له ووجدته يقف مع الضابط ذي الرتبة العليا والعساكر قد أولوا ماهر اللكمات في كل منطقة في جسمه .. كان منظره يثير الشفقة في نفسي رغم كل شيء.. ثم أشار لهم بأن يتوقفوا وقال بلهجة تجمد الدم في العروق.

- هسألك للمرة الأخيرة تعرف الراجل ده من إمتى وإياك تكدب.

والأخير لا يرد.

فيشير لهم بأن يكملوا له الطريحة حتى صرخ ماهر في انهيار أخيرًا:

- خلاااص هقول بس خلييهم يسيبوني.

انتبهت له بكل حواسي في حين استطرد الملعون:

- أنا معرفوش يابيه.. يغور في داهيه.

لم أصدق أذني ياسلاااااااااام أحلى داهية تجمدت الدموع في عيني وأنا أنظر له غير مصدق.

أشار لهم الضابط بأن يكفوا أيديهم عنه.

- قوم اتعدلي بأه كده، واحكيلي من الأول تاني.

لم يستطع النهوض ولكنه عكف يحكي كل ما حكيته أنا بالتفصيل وأنا أنظر له وللضباط وأقول في سري:

- يا بركة دعاكي يامّه.

بعد أن انتهي ماهر أخذ الضابط الأكبر رتبة عم سعيد وضابط الشرطة الذي كان قد رافقنا منذ البداية وأخذوا يتحدثون لبعض الوقت.

ثم سمعت أحدهم يناديني فأسرعت إليه.

- ربنا بعتلك يبني الملازم أول سعيد ده.. ومن غيره كنت هتروح في داهيه .. نظرت في الأرض ولم أعقب.

- بس تعرف لو ثبتلي إن ليك أي صلة من قريب أو من بعيد في التحقيق.

- اعدمني يا فندم.

- الملازم سعيد عارف بيتك وتعهد إنه يجيبك علشان تتمم المحضر وتشهد على ماهر وعلى اللي حصل.

ثم نظر إلى الضابط الذي رافقنا.

- إديله بطاقته وخليه يغور من هنا بسرعة ياللا.

- حاضر يافندم ربنا يخليك لينا.

وجذبني من يدي.

- إياك تقع في حاجه تاني زي دي خد بطاقتك وامشي .. من هنا على المنيرة دوغري.

لم أصدق .. كان إحساسي كالمحكوم عليه بالإعدام ونال البراءة .. أخذت أركض على درجات السلم أقع ثم أقوم ثم أقع .. إلى أن وصلت الشارع.

ياااه أنا في الشارع أنا بريء.

وليومنا هذا يا عاليا لم أعرف ما كان يريده مني هذا الماهر تحديدًا .. ولمَ أنا بالذات .. كنت مجرد شاب بائس ليس في جيبه إلا ما يكاد يكفيه.

لم أتوصل إلى الحل وإن جعلتني تلك الحادثة متحفظًا في تعاملي مع كل من حولي!

اللّه يخربيت البوسطجي واللي عايزه.

●●●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

- «الدوكة» هو عبارة عن مطعم نوبي في جزيرة بين أحضان النيل، تزدان فيه الحوائط والأبواب والأعمدة الخشبية بزخارف زاهية الألوان، وقد خُصص جزء من المكان لبيع العطارة والتوابل النوبية والأسوانية الفواحة.

كان قد عزم أن يحادثها في ذاك الأمر بكل صراحة.. بعد أن غاب أسبوعًا في القاهرة في مهمة تابعة للشركة .. ولم يشعر في تلك الأيام السبع أنها افتقدته أو حتى تظاهرت بذلك..

التقطت أنفها رائحة التوابل المتداخلة المسكرة التي اختلطت مع صوت منير الذي يعبأ المكان، فأرجعت رأسها للوراء قليلاً وأغمضت عينيها في انتشاء مستمتعة بتلك النسمة التي مرت تعبث بإيشاربها ووجهها في دلال من النافذة المجاورة.

تنحنح قليلاً كما على وشك الخوض في حرب كلامية.. ثم قال:

- إنتي مش ملاحظة حاجة؟

دون أن تفتح عينيها ردت:

- إيه.

- شفق فتحي عينيكي وكلميني زي مبكلمك..

فتحت عينيا والتفتت إليه برأسها في تكاسل:

- فيه إيه؟

- أنا اللي فيه إيه؟ ولا انتي اللي فيه إيه؟

الأسلوب الهجومي الذي نطقها بها جعلها تعتدل في جلستها وتلتفت إليه:

– فيه إيه يا سامح مالك؟!

ظل ينظر لها لدقيقة كاملة بعينين يملؤهما الحزن دون أن ينطق ، ثم لم يلبث أن نظر أمامه واستدرك.

- مفيش حاجه خلاص.

حدقت فيه ثوان باستنكار ثم لم تلبث أن قالت متأففة.

- أوك.

صمتا فترة قصيرة ثم استدرك هو وكأنه لا يريد للحديث أن ينتهي هنا:

- صح، وانت يهمك إيه أصلاً أتضايق ولا حتى أموت.

شعرت برغبته في الحديث وبأن هناك أمرًا جللاً يخفيه بداخله.. فمالت نحوه ممسكة يديه ثم قالت في رفق:

- طب قوللي مالك فيه إيه .. هو انت ليك حد تاني تحكيله.

obeikandl.com

- المشكلة إني مليش حد أصلاً أحكيله.

- نعم؟ وانا إيه يعني.

- انتي؟

أخذ نفسًا عميقًا ثم أخرجه بزفرة حارة وكأنما قد وصل إلى مبتغاه من الحوار، فاكمل ناظرًا إلى عينيها مباشرة وبطبقة صوت حرص على أن تكون منخفضة رغم كل شيء:

- انتي فين يا شفق.. تقدري تقوليلي انتي فين من حياتي، تقدري تقوليلي انتي أضفتي إيه لحياتي من ساعة مدخلتيها؟

كنت فاكر إني لما أحب واتحب هحس بتغيير، حلاقي حد يهتم بيا.. يخاف عليا، حد يسألني كنت فين .. زعلان ليه.. تعبان من إيه، إنما انتي...».

تركت يديه كأنما قد أصابهما مس كهربائي مفاجئ.

- انت بتقوللي انا الكلام ده ؟؟؟

- أمال بقوله لنفسي.

- وهو انا قصرت معاك في حاجه؟

قال وقد علت حدة صوته:

- المشكله انك فعلاً مش حاسه انك مقصرة عارفه ليه؟

لم ترد فعاجلها مطرقًا على الحديد وهو ملتهب:

- اقولك ياشفق، علشان دي طبيعتك للاسف، انتي عاوزه تاخدي .. تاخدي ومتديش، يعني انا مسافر بقالى أسبوع بحاله تقدري تقوليلي مين اللي كان بيكلم التاني فينا.

ردت مدافعه:

- مهو ده الطبيعي انك تكلمني وتطمن عليا.

قال وقد برقت عيناه:

- ايواااااه .. ليه بأه ده الطبيعي؟ ليه دايمًا محسساني انه حق مكتسب اني اهتم بيكي واخد بالى منك واسألك عن تفاصيل يومك وافهم قصدك من قبل متتكلمي في حين انك عمرك مابتيجي على نفسك وتحاولي مجرد محاوله انك تهتمي بيا.

إيه الانانيه دي ..!

قاطع كلامه النادل يضع أطباق الشيش طاووق .. ظلا صامتين طوال مدة الأكل وإن لم يأكلا من الطعام إلا أيسره.

وظلت هي لا ترفع رأسها عن الطبق الذي أمامها.. هازة إحدى

ساقيها في توتر.. يعرف تلك الحركة جيداً.. ويعرف ما يجتاحها الآن فاحترم صمتها.. إلى أن تركت الشوكة من يدها فجأة وواجهته قائلة:

- تعرف .. أنا مكنتش اتوقع انك كده.

- كده اللي هو ازاي يعني.

- يعني كده..

ولوحت بيديها مرتين في الهواء في محاولة للبحث عن الكلمات المناسبة ، ثم أردفت:

- يعني عمري متخيلت ان انت بالذات تطلب مقابل لمشاعر بتديهاني.

قال هازًّا كتفيه في بساطة ضاحكًا:

- وليه مطلبشي مش إنسان .. كائن حي بيعيش ويتعايش.

لم تضحك أو تبتسم فترك الشوكة من يده وشبك أصابعه أمامه على المنضدة قائلاً في تعقّل:

- شفق.. بصيلي.

نظرت إليه بعينين يشوبهما شيء لم يفهمه، فقال في رفق:

- عارفه المشكلة في إيه؟

obeikandl.com

لم تجبه فأكمل:

- المشكله انك دايمًا شايفاني نبع العطاء اللي مبيخلصشي ...بس ده غلط، انا انسان وليا احتياجات وأكيد مش هطلبها من حد غيرك، لاني عمري مبينت ضعفي غير ليكي انتي ..

شفق انا مش طالب كتير..حبة اهتمام..سؤال عني وعن أموري.. أكيد يعني مش هقولك كمان تهتمي بيا ازاي.

- وانا مش هعرف.
- يعني إيه مش هتعرفي هو لوجاريتمات .
- شوف .. انا كده، ده طبعي اللي انت عارفه وحافظه كويس أوي.
- تتغيري.
- صعب.
- ولا حتى علشاني.
- ولا علشان أي مخلوق.

نطقتها بكل صلابة.

صلابة جعلته لا يرد ..لا يعرف بما يرد.

أشاحت بوجهها لدقيقة ازدادت فيها حركة ساقها عنفًا ..

obeikandl.com

وصمتت فصمت.

لا تدري لمَ هاجمته بتلك الحدة..

هل فعلاً لأنها لن تقوى على الاهتمام به كما يريد؟ أم لأنه هو من طلب منها ذلك .. وهي لا تسمح لأحد بتوجيهها أو إملاء شروطه عليها، أم أن هناك أمرًا آخر؟

في الواقع كانت تشعر في الفترة الأخيرة من داخلها برغبة في تتحرر من سجن حبه لها.

تريد اهتمامه وسؤاله وشغفه بها، ولكن في قالب لا يسمح له بطلب المقابل.

غير مطالبَة بأن تقص عليه تفاصيل يومها.. الأمر الذي طالما أسعدها أصبح الآن مصدر سأمها.

لا تلزموني بشيء.. فأنا أمقت الالتزام.

ولكنها أخفت رغبتها تلك ولم تصارحه أبدًا.. مراعاة لمشاعره.. فماذا دهاه يطلب المزيد.

التفتت إليه قائلة بقوة:

- انا شايفه اننا كده خلاص.

- خلاص إيه.. كل ده علشان بقولك اني تعبت.. واني حابب احس اني مهم عندك.

- وانا متعلمتش ادي .. انا كده.. روح شوف واحده بتعرف تهتم..

- يعني إيه؟

- يعني زي مسمعت انا كده وده وضعي وواضح انه مبقاش مناسب لك، فخلاص واضح اننا اخترنا بعض من البداية غلط.

- انتي شايفه كده..

أطرقت ولم ترد.

أراد لسانه أن يقول أي شيء.. أن يتمرد على الوضع الذي فرضته عليه.

ولكن كرامته أبت.

- خلاص براحتك.

أراد لجملته أن يغلفها الكبرياء.. فخرجت خافتة واهنة مترددة ورغم كل شيء صعقها رده.. ربما لأنها انتظرت منه ردة فعل مختلفة، أو ربما لأنه لم يحاول معها كما عودها وكما توقعت فهبّت من مقعدها «**طبعا براحتي**». نزلت الدرج الحجري مسرعة لتجد المراكبي أمامها .. وتلقي نفسها داخل القارب ليتحرك فورًا، وتركته وراءها يلملم

obeikandl.com

شتات نفسه.. لم يرد أن يصل بهما الأمر ها هنا .. كان يدرك أنه سيحدث اختلاف ما، ولكنه لم يتوقع أبدًا أن يكون هذا هو ردها.

هل أهانها أو قلل من شانها لمَ يا شفق لمَ؟!

قلّت لقاءاتهما إلا فيما ندر .. ودائمًا ما كانت تتحجج بانشغالها بالعمل أو بالأصدقاء الجدد الذين اكتسبتهم من هنا وهناك ، فأنت تملك القدرة على جذب الكثيرين إليك إن أنت أردت ذلك.

وشفق كانت تريد أن تخرج من بوتقة سامح برغبة مجنونة في أن تريه أنها لن تبق عليه رغم أنها هي من بادر بالقول، إلا أن مجرد موافقته إياها دون مراجعة أو مقاومة أمر مسيء لكرامتها .. وهي العزيزة الشامخة لن ترضَ بهذا أبدًا.. تعلم أنه هناك.. في مكان ما يراقبها ..

اتسعت دائرة معارفها ..وأصبحت لا تمانع من اللقاءات الجماعية مع بعض الأصدقاء رغم أن كانت تمقت هذا الأمر من قبل..

كانت ترى الإعجاب والانبهار في عيون معظم من تتعرف بهم من الشباب لخفة ظلها وثقافتها الجمة، وكان هذا يرضي غرورها بشدة ويزيدها تأكيدًا بأن تركها لسامح كان قرارًا صائبًا جدًّا.

كانت تكمّل بكل من حولها ما كانت تراه انتقاصًا فيه.. فتملي قراراتها وتفتعل غموضًا .. مع كل من حولها.

أما سامح فكان متوارٍ هناك يرقبها في صمت.. كان بداخله يقين بأن كل ما تفعله ليس إلا «حلاوة روح» وبأنها لن تجد راحتها إلا معه، كان واثقًا من أنها تحبه.. بل تعشقه، ولكن كل ما تفعله الآن ليس إلا الهروب.. ستذهب بعيدًا وتحلق وتشعر بحريتها ثم هي آتية إليه لا محالة.

- وبلغ استفزازه أشده في ذاك الصباح الذي ارسل لها فيه رسالة نصية تحمل كل هذا القدر من التحدي والكبرياء والصمود بامضاء نزار:

أتحدّى من أحبُّوكِ ومن أحببتِهمْ

منذُ ميلادكِ.. حتّى صرتِ كالنخلِ العراقيِّ.. طويلهْ

أتحدّاهم جميعاً..

أن يكونوا قطرةً صُغرى ببحري..

أو يكونوا أطفأوا أعمارَهمْ

مثلما أطفأتُ في عينيكِ عُمري..

أتحدّاكِ أنا.. أن تجدي

عاشقاً مثلي..

وعصراً ذهبياً.. مثلَ عصري

فارحلي، حيثُ تريدينَ.. ارحلي..

واضحكي،

وابكي،

وجوعي،

فأنا أعرفُ أنْ لنْ تجدي

موطناً فيهِ تناميَ كصدري..

كان يزعجها إسلوبه وتزلزلها ثقته الزائدة

أما هي فقد عزمت على أن تترك لروحها العنان .. كطفلة تجرب أن تخطو أولى خطواتها خارج بيت والديها الذي ربيت فيه.. أن تخرج للشارع الذي كان محرمًا عليها من قبل.

فاندفعت دون حذر تنهل من كل ما حوله ومن حولها.. إلى أن تعرفت عليه.

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

الدمعة العاشرة

- حكايتي مع محطة الرادار - ١٩٧٢

كان الجو قارصًا جدًّا وعيد الأضحى لم يتبق عليه إلا بضعة أيام.

وما زال التناوش العسكري بين القوات المصرية والإسرائيلية مستمرًّا .. الأمر الذي اصطلح عليه إعلاميًّا بحرب الاستنزاف.

كنا في عام ١٩٧٢م عندما صدر لي الأمر ولأربعة من زملائي اثنين من الضباط واثنين من ضباط الصف الفنيين بالاتجاه إلى مكان ما بالبحر الأحمر .. عبارة عن جزيرة بالقرب من «برنيس "، يوجد بها كتيبة تقبع بها «محطة رادار إنذار مبكر".

توجهنا لأقرب مكان للجزيرة، ثم استقلينا قاربًا حربيًّا توجه بنا إلى هناك، عند وصولنا لاحظنا حالة الاستنفار الزائدة، مما زاد من قلقي.

نسيت أن أخبرك أني ومن معي كنا – في تلك الفترة – من ضمن مجموعة إصلاح أعطال لأجهزة الرادار والصواريخ بالكتائب.. أي يتم وضعنا كمجموعة إصلاح للأجهزة بنفس مكانها بالموقع.

وذلك لسرعة الإنجاز، وفي نفس الوقت الظروف لم تكن تسمح بنقل المعدات إلى ورش الإصلاح البعيدة نسبيًّا.. في العادة عند وصولنا إلى أي كتيبة أو محطة بها عطل أن نأخذ قدرًا من الراحة ويقدَّم لنا الطعام والشراب، ثم يتم شرح المهمة المطلوبة منا، ثم بعدها نبدأ بالعمل.

ولكن تلك المرة بمجرد وصول القارب إلى المرسى بالموقع تم اصطحابنا إلى موقع جهاز الرادار، ووجدنا قائد الكتيبة في حالة هياج شديد..

- نعم يافندم .. أؤمر.
- الجهاز عطلان والكتيبة مكشوفة للعدو من اكتر من عشر ساعات.
- تمام يافندم.
- انا مش عايز تمامات .. أنا عايز الجهاز يشتغل في أقرب وقت ممكن حرصًا على الكتيبة ومن فيها .. ثم إن كده فيه ثغرة في أجواء البلد مكشوفة للعدو بسبب كتيبتنا.
- تمام يافندم.

فتعطيل جهاز «رادار إنذار مبكر» للطائرات في كتيبة موجودة في شرق البلاد .. لهو كارثة حقيقية.

وبدأ كل الطاقم فورًا في العمل بكل ما أوتينا من قوة وفِكر ، وبعد حوالي خمس ساعات أي في تمام الساعة الرابعة عصرًا توصلنا إلى أن هناك وحدة داخلية من الجهاز معطوبة ومطلوب تغييرها.. وحدة لا يتعدى حجمها حجم الدُّرج الصغير.

وبمجرد أن قمت بشرح الموضوع للقائد حتى قال محتدًّا:

- أجيبهالك إزاي انا..والمخازن بسفاجا، منقدرش نأمِّن وصول الوحدة دي لهنا.
- طب يافندم ضروري جدًّا تغييرها ..
- انا اجيبهالكم إزاي .. الضروري عندي هو إصلاح الجهاز عشان يدخل في منظومة العمل.
- طب يافندم هل موجود عندك هنا قطع غيار بالوحدة؟
- لا طبعًا.
- والحل؟

ولم أكد أتم الكلمة حتى سمعنا أصداء تلك الانفجارات قربنا.

وإذا بغارة إسرائيلية على الموقع استمرت أكثر من ثلاث ساعات، فالمتبع أن يكشف ذاك الرادار أي غارة قبل حدوثها.

وطبعًا نزلنا في الملاجئ حتى ساعة متأخرة من الليل ونحن في إعياء شديد نتيجة لعدم تذوقنا للطعام منذ أكثر من يوم، ثم قام القائد بتوزيع علبة سردين وعلبة بسكويت بالكمون علينا . . نظرت بازدراء للوجبة، أبعد كل هذا الجهد؟!!

وبعد ساعة تم الاتفاق على أن يقوم أحد أفراد الطاقم مع فرد من الكتيبة بعملية صعبة وهي التوجه إلى المخازن بسفاجا لإحضار الوحدة ، فلم يكن بد من هذا الحل.

وكان هذا يستدعي استقلال قارب إلى الشاطئ ثم استقلال طائرة مروحية حربية إلى مكان المخازن.

ولقد تمت العملية بصعوبة شديدة، إلا أنهم بعد وصولهم لم يجدوا قطعة الغيار المطلوبة في المخازن، بل ولم يتمكنوا أيضًا من الرجوع إلى الكتيبة نتيجة رفع درجات الاستعداد للقصف اليومي المستمر.

كل هذا ونحن موجودون بجانب الجهاز في محاولات مستميتة للإصلاح.. أضيفي إلى ذلك أننا كنا نعمل في الظلام لأن محطة توليد الطاقة معطلة بسبب الغارات .

فكنا كالعميان نصلح جهازًا عاطبًا بغير قطع غيار!

استمر هذا الحال ثلاثة أيام متتالية ونحن لم نصل لحل لإصلاح العطل، وفي اليوم الرابع تم الاتصال بالكتيبة من قياده اللواء لإرسال مندوب لاستلام الوحدة العاطلة من إحدى الكتائب المجاورة على بعد مائة كيلو، وبالفعل قام أحد الأفراد بتنفيذ المهمة وإحضار الوحدة المطلوبة ، وكان هذا في وقفة عرفات..

والجميع بما فيهم قائد الكتيبة والقيادة العليا في انتظار إصلاح جهاز الرادار ودخوله في المجال الجوي.

استبشرنا خيرًا بالقطعة الجديدة ودلفنا إلى العمل فورًا - ونحن نستمع إلى التهليل والتكبير - في جهاز الرادار لتركيبها محل القطعة المعطوبة، ولكن الجهاز لم يعمل أيضًا! لقرابة الساعة من تركيب القطعة، وأخذ القائد بالصراخ:

- الله يخربيتكم انتو طقم إصلاح ولا طقم تخريب، الكتيبة في خطر وانتو مش عارفين تعملوا حاجه.

- يافندم احنا عملنا كل اللي علينا ومقصرناش في شغلنا.

- انا عايز الجهاز ينطق ويشتغل سامعني..؟؟ اتصرفوا.

ذهبنا للعمل من جديد واستمررنا تلك المرة لمدة عشرين ساعة متصلة ونحن نعمل بكل ما أوتينا من قوة في عمل متواصل حتى صباح عيد الأضحى ونحن نستمع إلى تكبير الصلاة في الصباح في الراديو.. ولكن بصعوبة بسبب التشويش على الموجات.

وفجأة قام الجهاز .. نظرنا له ذاهلين غير مصدقين .. صرخت بكل فرحة الدنيا:

- يافندم الجهاز نطق نطق يا فنداااام.

وبعد نصف ساعة دخلت المحطة للعمل وللمجال الجوي والنطاق المطلوب منها ووجدنا وجهًا آخر غير وجه القائد العابس الصارخ..

أخذ يقبلنا جميعًا فردًا فردًا ويهنئنا على نجاحنا بفرحة عارمة.

- انا عازمكو بأه على الفطار. وليمة ملوكي.. مش النهارده العيد .. ولا إيه.

وقام بأمر للمسؤول عن التعيينات بتوزيع وجبات الوليمة على كل منا.. أقبلت على وجبتي بنفس مفتوحة.. وسريرة مطمئنة هادئة..

تأملت علبة السردين وعلبة البسكويت بالكمون والبصلة.. ورشفت رشفة من كوب الشاي بنهم.. وأنا أتأمل الوليمة أحسست بسخونة تلك الدمعة على وجنتيّ..

دمعة لم أكابر في إخفائها شأني شأن كل الطاقم .. اجتاح كلاً منا إحساس عارم بنصر بعد طول إخفاق .

نزلت دمعتي على علبة البسكويت فمسحتها وقضمت قضمة أخرى من البصلة التي لم يزل طعمها في فمي حتى لان.. أجمل من طعم التفاح.

●●●

obeikandl.com

- قيادة اللواء الواحدة تحتوي على خمس كتائب من ضمنها كتيبة الرادار التي نقوم بالعملية داخلها.

obeikandl.com

الدمعة الحادية عشر

- ناصر- ١٩٧٣

لم يكن مجرد أخًا لي..

كان جزءًا مني.. شيء أشبه بشقيق الروح

رغم فارق السن بيننا حيث كنت أنا أكبره بثلاث سنوات.. إلا أنه كان أحب من بالبيت إلى قلبي وأقربهم إلي، كان عمك من النوع الخجول الصموت.. ذلك الفتى المهذب الذي لا يثير المشاكل ؛ لذا كان جدّك يحبه كثيرًا.

عكسي تمامًا.. أنا كنت كثير الحديث والمجادلة، وكنت أضيق ذرعًا بسجن والدنا بنا، وكان ناصر يتفهّم ذلك جيدًا ويدرك أنني غيره.. لذا كان يساعدني في مغامراتي الصغيرة.. والتي لم تكن تتمثل إلا في الخروج والتسكع مع الشلة هنا وهناك..

كان يضحي دائمًا من أجلي بأي شيء وكأنه هو من يكبرني وليس العكس..

في عام ٧٢ وقبل الحرب بعام كان هو قد تم تجنيده بالقوات المسلحة، وكان لي ما يزيد عن الثلاث سنوات كاملة لم أره فيها

منذ أن انقطعت عن السفر للبلد بعد آخر موقف لي مع جدك.. وبعدها أنا التحقت بالمعهد ثم سافرت وحدتي بأسوان.. فلم تتسن لي الفرصة أن أراه كل تلك المدة حتى حينما أرسل لي خطاب مفاده أنه سيسافر إلى أخينا الكبير في الإسكندرية وأنه يريد أن يراني هناك، لم أستطع أن أتحصل على إجازة وقتها.

حدث أن أرسل لي بعدها وقبل الحرب بحوالي خمسة أشهر تلغرافًا من البلدة.. وكان قد استطاع أن ينزل إجازة مرة أخرى.

هداه تفكيره أن يرسل لي تلغرافًا يقول فيه إن والدتي في خطر وصحتها في تدهور وتريد أن تراني!!!

كان يعلم أنني سأخلق الفرصة لآتي إليها بكل لهفة الدنيا والحقيقة أنه هو من كان يريد أن يراني..

فاختلق ذلك العذر.

وعندما وصل التلغراف.. وصل لي بعد حوالي أسبوع.. وقد فوجئت بقائد الوحدة يبلغني بأنه على التوجه لسوهاج لأن والدتي بحالة سيئة بالفعل أخذت أول قطار إلى قنا ومنها إلى سوهاج.. وعند وصولي وجدت والدتي في خير حال..

- إيه اللي جرى؟

- أخوك ناصر نزل أجازة أسبوع وكان عاوز يشوفك يا ولدي.. بس انت جيت متأخر، اجأزته خلصت امبارح فسافر.

- امبارح؟؟

لو كان القدر قاصداً أن يسخر مني بهذه الطريقة لما فعل بي هذا، ولو كان التلغراف وصل لي في ميعاده لكنت أدركته.

وقامت الحرب.

وذاع صيت عبور جنودنا للقناة، وبعد أسبوع وصل لي منه خطاب مكتوب يقول فيه إنه عبر مع الجنود وإنه بخير حال، وجعل يصف لي البطولات التي شاهدها بأم عينيه وكيف أن زملاءه البواسل استردوا أراضينا .. وكيف كانت البطولات وكيف زحفوا إلى سيناء.. مسافة وكم كان يشعر بالفخر وقتها.. وأنه عندما يراني سيسهب لي في التفاصيل.

كانت كلماته تقطر عزّة.

وقال بأنه استطاع أن يرسل هذا الخطاب لي وأن يرسل مثله إلى أمي عن طريق صديق له قد نزل في مأمورية إلى القاهرة، واستطاع ناصر وزملاؤه أن يحمّلوا هذا الأخير جلّ خطاباتهم لذويهم ليودعها صندوق البريد – البوسطة –.

كنت سعيدًا وفخورًا لأني وأخي نشارك في حرب التحرير وأن كلانا بخير حال، فقد كانت وحدتي أيام الحرب في البحر الأحمر.. أما هو فقد كان من ضمن أفراد الجيش الثالث الميداني.

قمت بتلاوة كلماته على زملائي.. وكان الكل يستمع بانبهار لكلمات خطها أحدهم من قلب الحدث.. فلم يكن لدينا – ولله الحمد – فيس بوك أو تويتر أو أمر من هذا القبيل ينقل لنا الحدث لحظة بلحظة..

بعد هذا الخطاب انقطعت أخباره تمامًا ولم يصلنا منه أي شيء لا أنا ولا في البلد، زاد القلق خاصة بعد وقف إطلاق النار ورجوع الجنود إلى ذويهم منتصرين متباهين.

تلقيت بعدها تلغرافًا من والدتي تخبرني بأن بالها مشغول على ناصر وبأن أكثر من مجند في البلدة قد رجعوا إلى أهاليهم عدا هو.. وسألتني أن أتحرى عن أخباره.

أخذت إجازة طارئة من الوحدة.. واستطعت أن أحصل على خطاب توصية باعتباري فردًا من أفراد القوات المسلحة مفاده: «مقدم لكم فلان الفلاني للاستفسار عن أخيه المجند وذلك لتسهيل المهمة».

وتوجهت للقاهرة أسأل في قيادة الجيش أو في أماكن الاستعلام عن الشهداء والجرحى .. أطلعوني على كشوف لشهداء والجرحى.. ولم أجد اسمه فيها..

ولا حتى في كشوف المفقودين..

لم يستطع الموظف الموكل بذلك إفادتي بشيء.. ولكنني رفضت المغادرة..

- أمشي ازاي طب قوللي أسأل مين.. انا عايز اعرف اخويا راح فين أسأل مين انا؟

وبعد إلحاح مني وإصرار ومشادات وأخذ ورد، قال لي بأن هناك كشوفات جديدة وصلت إلى القيادة لتوّها هذا الصباح، وقال لي بأن أنتظره قليلاً عساه يأتيني بها.

انتظرت.

أعتقد أن تلك اللحظات كانت أطول اللحظات في حياتي كلها.. عقارب الساعة لم تتحرك.

كنت أنظر إليها فأجدها ثابتة..

راح خيالي يرسم لي أبشع الصور لأخي.. أنتظر نبأه، حيًّا أم ميتًا ويا له من نبأ.

ذهب تفكيري إلى أبعد الحدود.

- لو سمحت .. اسم أخوك إيه بالكامل؟

- هه؟ أأأأ .. ناصر.. ناصر عبد الصبور عبد الوارث.

طأطأ رأسه في الأرض لحظات، ثم قال في لهجة آسفة:

- طيب استنى شويه.

غاب وعاد لي بعد قرابة الربع ساعة مادًّا يده إلي بخطاب مغلق:

- اتفضل دي شهادة استشهاد البطل ناصر ..

- يعني إيه؟

- يعني أخوك استشهد، إفرحله.

وأراني اسمه في الكشف، مكتوب تاريخ الاستشهاد يوم٢٥ أكتوبر.. في السويس.

أتعلمين شيئًا عن أمر الثغرة؟

هل تذكرين ذلك المشهد الذي يأتي فيه ذكر ثغرة الدفرسوار في فيلم أيام السادات حين يسأل أحمد ذكي القادة في غرفة العمليات قائلاً: – «هي الثغرة دي حاجة تقلق؟؟ فيرد القادة في نفس واحد لا متقلقش!!!!!».

قمة التزييف لتاريخ حرب أكتوبر، إن صناع الفيلم كان كل همهم إظهار السادات بلا أخطاء وبلا نقاط ضعف .. لقد علموا جيلك أن

حرب أكتوبر كانت انتصارًا عظيمًا للجيش المصري - وهي كذلك - وأنها حرب بلا أخطاء - وهي غير ذلك -.

لقد أخفت القيادات السياسية المتعاقبة الانتكاسة التي تعرض لها الجيش المصري في الأيام الأخيرة للحرب بحجة أنها أسرار عسكرية، بينما على الجانب الآخر وبعد انتهاء الحرب بثلاثة أسابيع شكلت إسرائيل لجنة «أجرانات» برئاسة قاضي المحكمة العليا في إسرائيل «شيمون أجرانات» للوقوف على القصور الذي اعترى أداء الجيش الإسرائيلي وتحديد المسئول عنة ومعاقبته بغرض عدم تكرار تلك الأخطاء مستقبلاً.

رصدت طائرة استطلاع أمريكية وجود ثغرة بين الجيش الثالث في السويس والجيش الثاني في الإسماعيلية.. والتي ما كانت إلا نتيجة لقرار السادات بسحب الفرقة الرابعة والفرقة الواحدة والعشرين لتأمين المضائق شرقًا .. هاتان الفرقتان كانتا موكلتين بتأمين مؤخرة الجيش الثالث..

بالاضافة إلى أن منطقة الدفرسوار ذاتها كانت منطقة ضحلة فلم نتوقع أن يستغلها العدو بهذا الشكل.. ولكنه فعلها وقام بتطويق الجيش الثالث من الخلف.

ولمعلوماتك.. مؤخرة الجيش كانت دائمًا عبارة عن قواعد الصواريخ ال م ط (مضادة للطائرات) والشؤون الإدارية والإمداد والتموين ..

وهذا ما حاصره العدو حتى إن قيادة الجيش في القاهرة كانت ترسل أفراد العمليات الخاصة ليلاً لتفكيك الصواريخ وتحويلها للجانب المصري قبل أن يستولي عليها اليهود ..

ولم تستجب الرئاسة وقتها لطلب سعد الدين الشاذلي بانسحاب القوات .. على أي حال استطاعت إسرائيل أن تدخل مدينة السويس كنتيجة للثغرة .. بعد أن مارست كافة الضغوط النفسية على المدينة بأكملها على أمل أن تسلم الأخيرة.

فلم تكتف القوات الإسرائيلية بالحصار البري الذي ضربته على السويس بقطع كل الطرق المؤدية إليها ولا بالحصار البحري بقطع الطريق المائي المؤدي إلى الخليج .. بل إنها عمدت إلى توجيه أقسى أساليب الحرب النفسية ضد سكانها وبغير شفقة بقصد الضغط على أعصابهم لحملهم على التسليم؛ ولهذا قامت بقطع ترعة السويس المتفرعة من ترعة الإسماعيلية والتي تغذي المدينة **بالمياه الحلوة**، ودمرت شبكة الضغط العالي التي تحمل **التيار الكهربائي** من القاهرة إلى السويس، وقطعت بعد ذلك **أسلاك الهاتف** التي تربط

المدينة بالعالم الخارجي وكانت القيادة الإسرائيلية على يقين بأن أهل السويس سوف يقابلون دباباتها ومدرعاتها بالأعلام البيضاء حال ظهورها في الشوارع بعد أن أصبحوا في هذه الظروف المعيشية التي لا يمكن لبشر أن يتحملها، فلا مياه ولا طعام ولا كهرباء ولا معدات طبية أو أدوية للمرضى والمصابين، ولا اتصالات هاتفية بالخارج، وفي رمضان!

لم تنم المدينة – يا عاليا – وظل جميع أبنائها ساهرين طوال الليل في انتظار وصول الأعداء ، وعندما نادى المؤذن لصلاة فجر يوم ٢٤ أكتوبر اكتظت المساجد بالناس ،وخاصة مسجد الشهداء بجوار مبنى المحافظة. وانطلقت الأدعية تشق سكون الليل والحناجر تهتف «الله اكبر» في مشهد تقشعر له الأبدان..

وما إن دقت الساعة السادسة صباحًا حتى بدأت الطائرات الإسرائيلية في قصف أحياء السويس لمدة ثلاث ساعات متواصلة في موجات متلاحقة وبشدة لم يسبق لها مثيل ، وكان الغرض هو تحطيم أية مراكز مقاومة داخل المدينة والقضاء على أي تصميم على القتال لدى أهل السويس، ولكن ما حدث كان عكس المتوقع فقد استطاع أبناء السويس المدنيين بالمشاركة مع الشرطة والقوات المسلحة من هزيمة فرقة مدرعة تتكون من ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مظلات فأي إعجاز هذا؟؟؟؟؟

لا أطيل عليك.. كان عمك ناصر من ضمن أفراد «الفرقة ١٩ مشاة» التي انبرت للدفاع عن المدينة بقيادة قائدها الفريق يوسف عفيفي، والذي خرج كتابه «الفرقة ١٩ مشاة أبطال فوق العادة» إلى النور ليصف لنا بطولات جنوده في الحرب.. عمك كان واحد من هؤلاء.

وهو الأمر الذي لم أستطع استيعابه في حينها وأنا أقف أمام الموظف مذهولاً..

لا أصدق حرفًا.

- مات ازاي ده باعتلي جواب.

- اهدى وصلي عالنبي.

- عليه الصلاة والسلام، بس هو باعتلي جواب لسه، ومطمني عليه.. مات ازاي يعني؟

ظللت أردد الكلمة وأنا لا أعي شيئًا.. ولا أصدق ما يقول.

ولم يكن بيد الموظف ما يفعله من أجلي إلا أنه ربت على كتفي وانصرف .

وقتها كان أول ما خطر ببالي فعله أن خاطبت زوج أختي .. فلم أجرؤ على مصارحة صوت أمي .. بالخبر.

لم أبكِ .. لا أعلم لِم ولكني لَم أبك.

كان قلبي يصرخ ألمًا وظلت عيوني جامدة إلى أن وصلت البلدة ورأيت الصوان المنصوب ودخلت لأرى أمي وحولها النسوة متشحات بالسواد وما أن لمحتني حتى أمسكتني.

- فين ناصر يا ميلاد.. أنا عاوزه ناصر بقولك.. هاتوولي نااااصر.

عندها فقط انهرت..

سقط أرضًا وأنا أبكي بكل كياني.. أبكي على القلب الأبيض الخيّر الذي تركني وحدي وغاب، لو كنت أعلم أنه سيموت لما كنت أضعت كل تلك السنوات دون أن أراه.

ألقت أمي بنفسها فوقي وهي تنتحب وتبكي..

لا أتذكر كم من الوقت ظللنا على هذا الحال.

ومن وقتها بدأت صحة جدتك تسوء.. وكذا جدك.

●●●

obeikandl.com

تنهدَت تنهيدة عميقة وقد تذكرت عمها الحنون، ذلك القلب الخيّر الذي لو كانت تدرك أن نهايته قريبة إلى هذا الحد لقضت وقتًا أطول في استرضائه، تنهل من حبه ما يشبعها منه حين يغيب.

شعرت برغبة في البكاء.. لكنها تداركت الأمر .. أغلقت الكراس وأخذت نفسًا عميقًا ببطء وتئنّ ثم أمسكته في صدرها لثوان قبل أن تخرجه ببطء.. كررت الأمر ثلاث مرات متواصلة وهي تنظر إلى المكان حولها.

كان السطح قد بدا شبه خال في هذا الوقت من الليل إلا من شفق، وذلك العجوز المتأمل هناك في الركن.

والطقس أصبح أكثر برودة .. فلملمت حاجياتها ونزلت غرفتها..

وكانت الساعة قد تعدت الثالثة والنصف فجرًا، خلعت الشابوه لينطلق شعرها البني من تحته كغزال شارد يفر من قسورة، فتحت شرفتها وجلست أمامها بعد أن أطفأت جميع الأنوار إلا تلك الإضاءة الخفيفة بجانبها..

فتحت الكراس وبدأت تستكشف الدمعة التالية.

- محمود..

صديق لها يعمل في مجال الإرشاد أيضًا، وبالرغم من أنها كانت تعرفه منذ فترة كبيرةإلا أنه لم تكن هناك محادثات جادة تجمعهما سوى مرات معدودة.. ولكن مؤخرًا اكتشفت وجوده في معظم اللقاءات التي تضم أصدقاءً مشتركين. بينهما.. وجدت منه حضورًا ولباقة وخفة دم.

قاهري الأصل ولكنه جاء لأسوان والأقصر ليعمل بالإرشاد السياحي باللغة الصينية.

وسميًا كان، ذا بشرة بيضاء ووجنتين يشع منهما الاحمرار وعينين خضراوتين واسعتين.. وشفتين مكتنزتين يزينهما غمازتان تزيدانه إشراقًا وبهاء، متوسط الطول مفتول العضلات يذكرك بأبطال القصص الأسطورية.

قارنت في عقلها الباطن بين سامح وبينه، فوجدت الأخير قادرًا على إبهارها أكثر.. أضف لذلك نظرات المعجبات له عندما يكونان وسط جمع من الأصدقاء.. أصبحت تتودد إليه وتطيل الحديث معه .. ثم حدث أن تقابلا أثناء العمل مرة في الكرنك ومرة في البر الغربي..

تطورت العلاقة بينهما إلى أن صارحها بالإعجاب، ومن ثَم بطلب الزواج..

لم تفكر طويلاً.. ولم تتردد.. أرادت فقط أن تبتعد عن دائرة زنزانة سامح بكل قوة وإرادة..

وتحدٍّ.

نظمت هي وهو وبعض الأصدقاء المشتركين وبعض السائحات صديقاته، حفلاً متواضعًا في أحد المقاهي المطلة على النيل.. وكانا قد ابتاعا دبلتين مزدانتين بالنقوش النوبية من حديقة النباتات على أن يقيما خطبة صورية .. بعيدًا عن العائلة وما إن يتأكدا من قرار الزواج حتى تخبر هي والديها بالإمارات ويخبر أهله في القاهرة لتتم الرسوم الرسمية المعتادة.. فرغم انزعاجها منهما، إلا أن شفق لم تكن لتتم زواجًا أو خطبة دون علم والديها مهما كان

وكانت ليلة ليلاء.. لم يعكر صفوها سوى مكالمة من سامح.. بثها فيها تهانيه الحارة.. ولم ينس أن يخبرها في آخر المكالمة أنه ينتظر اليوم الذي تدرك فيه حبها له وله وحده.. ستلفظ كل من حولها وتعود إليه.. كابنة تعود إلى أحضان أبيها من جديد، لم تتحمل استفزازه وثقته الزائدة بنفسه.. فأغلقت الخط غير عابئة.

من بعد تلك الليلة التقت به مرتين وفي كليهما كرر عليها نفس الكلام.. قال لها إنها ما زالت صغيرة وغير مؤهلة للحكم على الأشخاص وبأن هذا الخطيب أخلاقه ليست على ما يرام وبأنها تقتل قلبها بيديها ، قال ما عليه قوله ثم انزوى في الظل ينتظر..

سيظل يرقبها من بعيد وهي تحلق كالفراشة ويعلم أنها آتية إليه لا محالة، أما هي فلم تبال بكلماته.. كانت كلما رأت انبهار الأخريات بمحمود أدركت في قرارتها أنها على حق.. عاشت أيامًا وهي تشعر بأنها ملكة قلبه المتوجة.. كان بالنسبة لها الرجل.. الذي طالما انتظرته بوسامته وسحره وجاذبيته.

كان يعجبها إعجاب السائحات الأجنبيات به.. يشعرها هذا بالتميز ويرضي غرورها، يكفي أنه تركهن جميعًا واختارها هي ليتزوجها

هي فقط من فازت بقلبه.. منذ متى يعجب سامح الأجنبيات؟

توالت أيام الهناء مع محمود .. كانت تشعر وهي برفقته بأنها قد ملكت العالم كله.. غير أن الصورة كان ينقصها شيء ما.. لم تكن تشعر بتلك الأريحية التي كنت تتحادث بها مع ذلك الصديق المنزوي.

تلك الراحة النفسية.. ذلك الهدوء.

مع سامح كانت تقول ما تود قوله في أي وقت وهو يتفهمها سريعًا دون أن تتكبد عناء التوضيح.

كان هناك تكلّف ما تشعر به مع محمود.. فهي التي تسعى لتتفهمه وتخشى أن تغضبه.. وهي من تبحث دائمًا ما بينهما عن أرض مشتركة.. فقد كانت تخشى ابتعاده..

ليس لأنها تحبه.

ولكن كي لا تخسر الرهان أمام سامح.. وكي تحافظ على نظرة الحسد التي باتت تتمتع بها في أعين الأخريات.

أما هذا الصديق – سامح – فظل لها صديقًا.

كان هذا إلى أن جاء ذلك اليوم المشئوم.. واحد من الأيام المقيتة التي تمنت لو أنها تمح من ذاكرتها للأبد.

رأته.

كانا يتواريان في غفلة من حارس المقبرة..

داخل تلك الحجرة الجانبية التي تلازم حجرة الدفن بإحدى مقابر وادي الملكات.

رأته وهو يقبل تلك الصينية الفاتنة بنهم.. حظه التعس جعلها تختار تلك المقبرة بالذات في هذا التوقيت بالذات لتبدأ بها جولتها مع المجموعة المصاحبة لها .. أم أنه حظها.

رأتهما وتسمرت في الأرض مكانها.

في حين عدلت الفاتنة من هندامها بسرعة منسحبة من المكان بخجل وسط ابتسامات خافتة وهمهمات من الفوج المصاحب لشفق..

التي ظلت ترمقه لثوان بنظرة حملت كل احتقارها وازدرائها، وأول ما جال بخاطرها لتفعله هو أن خلعت دبلتها وألقتها بالمعنى الحرفي للكلمة في وجهه .. وهذا ما صار.

ثم انسحبت هي الأخرى تاركة وراءها الفوج المصاحب لها لا يدري ما يفعله .. ومحمود، والذي لدهشتها لم يحاول حتى اللحاق بها! دارت بها الدنيا، وضاقت بها الأرض بما رحبت، أخذت القطار إلى أسوان وقد تساوت بها الأشياء، فور وصولها ذهبت إلى المرسى وألقت بنفسها مع المراكبي وأمرته بآلية وبوجه جامد أن يذهب بها إلى هناك..

إلى المخبأ!

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

الدمعة الثانية عشر

- حكايتي في السيل الريفي – ١٩٧٥

انتقلت وقتها للعيش في مدينه أسوان الخلابة بوحدتي العسكرية

●●●

برقت عينا شفق واضطربت أنفاسها عندما قرأت اسم أسوان .. هذا يفسر وجود الكراس هناك إذن.

●●●

وكان لي صديق بلدياتي – من سوهاج – يستأجر منزلاً بمنطقة تسمى السيل الريفي.. فأوكلته بالبحث عن منزل بالجوار لأقطن فيه.. بعد أن أخذت الموافقة من قائدي بالوحدة بتقسيم الأيام بين وحدتي العسكرية وبين منزلي الجديد، والسيل الريفي هي إحدى مناطق «تهجير النوبة».. فبعد إنشاء السد .. تم تهجير النوبيين الذين تهدمت منازلهم وغمرتها مياه السد إلى مساكن في مناطق متفرقة من أسوان وكان السيل الريفي إحداها.. وبعض النوبيين فضلوا أن يقوموا بتأجير تلك المنازل وأن يقطنوا بغيرها.

وكان تصميم البيوت متشابهًا بل متطابق من الداخل والخارج.

كل بيت مكون من بهو كبير غير مسقوف يوجد في منتصفه شجرة تسمى شجرة «البامبوزيا» وهي من الأشجار المعمرة التي كانت تزرع بكثرة هناك آنذاك.

والمنزل نفسه مكوّن من ثلاث حجرات تحيط بهذا البهو ودورة مياه والحجرات مسقوفة على هيئة قباب مبنية معلق بجوانبها دواليب خشبية يتم وضع الأطعمة بها.

هكذا كان سكان النوبة يفعلون كي يتمكنوا من المحافظة على الأطعمة من الحشرات الزاحفة - وما أكثرها - .

قضيت في المنزل ما يقرب من العام لم ألحظ أي شيء غريب سوى أنني كنت إذا جلست تحت الشجرة ليلاً تساقطت ثمار البامبوزيا على رأسي وكأن أحدًا يرمي بها.

ولكني لم أعط لهذا الموضوع أي أهمية.

كانت حجرتي لها باب مواجه للبهو وتتكون من تخت حديدي ثقيل يحيطه غطاء كبير – ناموسية - لشدة لسعة الباعوض هناك وكبر حجمه .. ودولاب ومنضدة صغيرة خشبية وأريكة.

كان كل شيء على ما يرام حتى تلك الليلة، ليلة الخميس.. وكانت ليلة مقمرة .

سهرت تحت شجرتي حتى الثانية عشرة وأنا أتصفح كتابًا كنت قد ابتعته من السوق ليحيى حقي حتى غلبني النوم.

فدخلت الحجرة وزحفت تحت الناموسية.. وأنا نصف نائم شعرت بأن التخت يهتز من تحتي!

التخت الحديدي الثقيل يهتز!..

حسبت أنه زلزال.. اعتدلت وجلست، نظرت إلى دولاب الأطعمة المعلق.. ثابت في مكانه.

حتى تلك الوريقات القليلة هناك على المنضدة لا تهتز!

ثم سكن الاهتزاز.

ظللت لدقائق أجلس مكاني لا أفهم شيئًا.

ثم لم ألبث أن رقدت من جديد، ولكني لم أنم ظللت راقدًا متربصًا مفتوح العينين.

إذا بالاهتزاز يعود.. ويشتد ثم فجأة رأيت شيئًا متشحًا بالسواد يظهر أمامي..

نعم .. شيء يزيل الناموسية ببطء ويقف عند طرف السرير في سكون والسرير يهتز!

أجفلت..

وانكمشت في نفسي.. وزاد معدل ضربات قلبي للضِّعف.

وببطء أزال أو – أزالت – الغطاء عن وجهها ليطل على وجه لم أرَ في بشاعته طيلة حياتي.

وجه أسمر بيضاوي تسيل الدماء من أكثر من موضع فيه وفم تتخلله أسنان صفراء مكسورة وعينان حمراوين ولا أتذكر أن كنت رأيت أنفًا أم لا.

كانت تنظر إلي نظرة لم أنسها طيلة حياتي ، وتصدر أنينًا خافتًا كلما زاد الاهتزاز.

لم أتمالك أعصابي ، فصرخت صرخة كادت تخرج معها روحي..

حتى إن جاري «عم أحمد بن بِلّة» سمع صرختي وكان ساهرًا في بيته.. فقام وقفز من السور الفاصل بين المنزلين وجاء بسرعة فتح علي الباب الذي لا أوصده أبدًا، وأضاء النور ليجدني منكمشًا في ركن السرير أصرخ صراخًا متصلاً .. ركض نحوي وأخذ يهدئ من روعي.

- بسم اللّه الرحمن الرحيم.. مالك بس.. اهدا اهدا فيه إيه كفاللّه الشر.

قلت وانا أتصبب عرقًا من كل جسمي:

- شفتها؟

- هيا إيه دي.

- الست اللي كانت واقفة عند رجلي دلوقتي ؟

- طب اهدا بس واحكيلي.

رويت له بأعصاب مرتعشة ما حدث..

وكان رده عجيبًا.

- يعني انتا بقالك اكتر من سنه بالبيت ده.. والنهارده بس بتقول كده؟؟

- قصدك إيه؟

- ولا حاجه، تعالى نام عندي والصباح رباح.

في اليوم الثاني لم أذهب إلى وحدتي .. رحت أتسكع بعد الظهيرة في السوق لآتي ببعض المتطلبات ، وهناك رأيت نبيل..

نبيل ، صديق قديم لي يعمل مدرسًا كان يسكن المنزل قبلي مع أخيه جمال ..

- نبيل يا نبيييل.
- إيه يابو طلبة صباح الفل.
- صباح الخير .. كويس إني شفتك كنت عاوزك شوية.
- خير.

أخذته معي إلى قهوة الجمهورية المجاورة للمحطة.. والتي كانت وقتها – مع قهوة فلسطين – محلاً للساسة وأصحاب الأقلام الحرة.

●●●

ابتسمت شفق عندما تذكرت الحال التي آلت إليه القهوة الآن.. أصبحت مرتعًا لكل ذاهب أو آتٍ من وإلى المحطة ليس إلا وطلبت من النادل القهوة.

●●●

– هههه وانت بعد سنه جاي تقول حصل معايا... كدا دنتا إنسان غريب يا أخي.. إزاي اتحملت تفضل في البيت ده الفترة دي كلها؟

– تقصد إيه انت كمان؟

- ولا حاجه.

- ياعم قول هيا ناقصة ساسبينس كفايه الرعب اللي انا فيه.

- هههههه طب اسمع ياسيدي.

وبدأ يروي..:

كنا العام الماضي أنا وجمال نقطن هذا المنزل.

لا أخفيك سرًا.. دائمًا ما كان يحدث معي أشياء غريبة.. فتتساقط على ثمار البامبوزيا في الليالي القمرية..

وينفتح الراديو دون أن أمسسه في أوقات معينة، أشياء من هذا القبيل ، والتي كنت أغض الطرف عنها.

وكان جمال يأتي من عمله بعد المغرب .. نتسامر قليلاً ونتناول عشاءنا وننام وفي الصباح يذهب كل إلى عمله.

وفي أحد الايأم انتظرته إلى ما بعد العشاء ولم يحضر.. فحسبت أنه في نوبتجية بعمله ونمت.

استيقظت بعد منتصف الليل قلقًا كي أذهب إلى دورة المياه.. وإذا بجمال ينام في سريره المواجه لي «وملفوف» في البطانية من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.. لم تكن عادته خاصة في هذا الطقس.

قمت.. أضأت النور.. توجهت ناحيته كي أوقظه .. وما إن اقتربت من تخته حتى انتابتني رعشة لم أدر مصدرها يا طلبة ولم أشعر بها من قبل .. تسمرت مكاني ولم أجرؤ على ملامسة البطانية.

رعشة خفية أصابت أوصالي وجمدت يدي في مكانها قبل أن تصل إليه.. انسحبت راجعًا إلى تختي في خضوع وقد تركت المصباح مضاء.. لم أذهب حتى إلى دورة المياه.. اتكأت في فراشي وظللت أرتعش في مكاني وحتى طلوع الفجر..

ثم غلبني النوم لساعة أو ساعتين.. وعندما استيقظت لم أجده مكانه.. متى جاء ومتى غادر؟

ارتديت ملابسي وذهبت له عمله في المصنع في كوم امبو قبل أن أذهب إلى المدرسة..

وكانت أول مرة أذهب إليه عمله، فقابلني بوجه منزعج وعلى قسماته علامات التساؤل..

- إيه يا جمال فيه حاجه ولا إيه؟

- حاجه؟؟ يبني انت جيت امبارح في إيه ومشيت في إيه وليه مصحتنيش؟

- امبارح؟؟ جيت فين؟

- **حيكون فين؟ البيت ياجمال.**

- **يبني انا كنت نوبتاجي امبارح وكنت بايت هنا.**

- **لا لا بص انا مبحبش الهزار بالطريقه دي.**

رد ضاحكًا:

- **والله مبهزر.. بقولك انا كنت بايت هنا حتى أسأل الناس على البوابة هيقولولك انا مسيبتش الشغل امبارح أصلًا.**

نظرت له وكلي ذهول وكنت على وشك أن يغشى على يا طلبة..

ومن وقتها لم أدخل هذا البيت أبدًا.. أرسلت أحد الأصدقاء ليأتي لي بأشيائي ومستلزماتي أنا وأخي.. كي لا أمس عتبته.

●●●

تركته وتركت قهوتي الباردة شاردًا .. وذهبت.

بعد هذا الحديث.. لم أذهب أنا أيضًا لهذا البيت ثانية..

مرت تلك الليلة على خير وعم «أحمد بن بلّة» أنقذني، فمن أدراني ماذا سيحدث لي في المرة القادمة.

ولكني يا عاليا لم أر بشاعة كتلك التي رأيتها على وجه ذلك – تلك – الشبح.

●●●

obeikandl.com

الدمعة الثالثة عشر

- حب في القطار – ١٩٧٦

اقتربت الساعة من الثانية عشرة ظهرًا.

وانطلق الديزل المتجه من القاهرة لأسوان مارًّا بمحافظات الصعيد واحتل كل مسافر مقعده، فوجئت أن المقعد المجاور لي فارغ لم يشغله أحد.. وبعد جزء من الساعة وصل القطار إلى محطة الجيزة ولم يقف كثيرًا، ثم انطلق في طريقه.

وبينما كنت أحاول الاستلقاء على مقعدي وأذهب في غفوة النوم التي كنت أنتظرها .. وإذا بملاك يقف بجانبي.

– لو سمحت .. الكرسي ده بتاعي.

انتبهت لها فتنحنحت في حرج وقلت:

- اتفضلي.

وانتقلت أنا إلى المقعد المجاور لها..

كانت جميلة جدًّا.. بريئة جدًّا.. رشيقة جدًّا، لم تتعد العشرين من عمرها .

بيضاء.. نضرة البشرة سوداء الشعر ملساؤه .. عسلية العينين.. تنبعث منها رائحة عطر فواحة، جعلت كل من بعربة القطار يتمنى لو يجلس محلي.

أسندت رأسي على مؤخرة الكرسي وأسبلت جفنيّ تحت تأثير خدر عطرها، وبعد حوالي الساعة جاء الكمسري فأخرجت له التذكرة - أو النصف تذكرة - فقال:

- الكارنيه لو سمحت؟

أخرجت له الكارنيه ، نظر فيه مدققًا ثم ناولني إياه وانصرف.

بعد ثوانٍ قامت جارتي الجميلة بتشغيل شريط لعبد الوهاب في الراديو الصغير الذي كانت تحمله.

وأخذت تدندن معه بصوت خفيض.

«ياوابـــور قوللي رايح على فيين

يابوابـــور قــوللي وسافــرت منين

ياوابـــور قوللي ، ياوابووور قوللي»

التفتُّ لها فوجدتها قد استلقت على مقعدها وأسبلت جفنيها هازة رأسها يمينًا ويسارًا مع نغمات الأغنية، تأملت وجهها الصبوح مليًّا.

obeikandi.com

- أغنيه جميله.

قلتها في تردد فإذا هي تفتح عيناها وتنظر لي نظرة ساحرة قائلة.

- بتحبها؟

- آه.. كتير.

كان جسدي كله يرتعش من وقع تأثيرها علي.. حتى إنني خفت أن تلاحظ تهدج صوتي الواضح.

- حضرتك مسافرة فين.

- انا رايحه الاقصر .. وانت.

- انا رايح وحدتي في أسوان.

- ظابط؟

- ايوه .. بس ظابط صغير.

ابتسمت ابتسامة ساحرة .. قائلة في دلال:

- هو فيه ظابط صغير وظابط كبير؟

- ايوه ظابط كبير يعني رتبة كبيرة وظابط صغير يعني رتبة صغيرة.

استمر الحديث بيننا على هذا المنوال وأنا أنهل من عبير عطرها ومن كلماتها، استمر الأمر حوالي الثمان ساعات إلا أنني لم أشعر بالوقت إطلاقًا.

كل من حولنا كانوا يغطون في سبات عميق.. أما نحن فكنا ننتهي من حديث لنبدأ في آخر.

وفجأة وجدتَني أقول لها:

- إيه رأيك في الحب؟

نظرت لي بعينيها العسليتين بنظرة لم أفهمها.. ولم ترد.

- أنا آسف .. مقصدتش أسببلك ضيق.

ببسمة حانية قالت:

- ليه قلت كده.. أنا بس كنت هسألك نفس السؤال .. لو انت مكنتش سألت.

- توارد خواطر.

- أيوه.

قالتها بضحكة قصيرة أظهرت أسنانها المتناسقة اللامعة وتلك «الغمازات» الساحرة في خديها.. كيف لم ألحظها من قبل.

obeikandl.com

- سرحت في إيه جاوب بأه.

قالتها فتنحنحت وقلت:

- الحب ده أحلى حاجه في الدنيا وخصوصًا لما ينزل علينا زي القضا المستعجل.

- يعني انت بتؤمن بالحب من أول نظرة؟

وكأنني كنت أتوقع السؤال قلت في سرعة:

- طبعًا.. وانتي؟

أطرقت رأسها أرضًا وحانت منها نظرة خجولة جعلت قلبي يدق وتكاد أصوات دقاته تُسمع كل من في العربة.

- تعرف اني وكأني أعرفك من زمان.

- والله نفس الإحساس.

إن طـــال الوقت علـــى الركـــاب

يجري كلامهم في سؤال وجواب

بعد شوية يبقوا أحباب وده يعرف ده

رايـــــــح علـــــــى فـــين

obeikandl.com

بعدها سار الحديث في مسلك آخر، وأخذ كل منا يحكي ظروفه للآخر.. وحكت لي أنها ذاهبة إلى الأقصر لأختها المتزوجة كي تستعين بها لإقناع أبيها بألا يجبرها على السفر معه.. في محاولة أخيرة منها لإقناعه ..

حيث إن والدها تم انتدابه كمسؤول ثقافي بسفارة مصر بالولايات المتحدة وهي لا ترغب في السفر.

وباقي على السفر حوالي شهر وهي تقوم بمحاولات مستميتة لجعل والدها يقتنع بالمكوث في بيت أختها بالأقصر.

لحظات جميلة مرت إلى أن قاطعنا الكمسري هاتفًا:

- اللي نازل الاقصر باقي نص ساعه.

نظرت لها ونظرت لي..

وفي عينيّ خيبة أمل.

وفي عينيها حزن غريب.

لماذا لا يتركنا الزمان لنستمتع بلحظاتنا الكبرى؟

التفت لها بلهفة وقلت:

- هشوفك إزاي؟

قالت في ضعف لم تستطع إخفاءه:

- مش عارفه انا رايحه لمجهول مرحتش الاقصر قبل كده ومعرفشي حاجه فيها ومش عارفه إيه اللي هيحصل عند اختي.

- لا انا لازم اشوفك بصي.

وأخرجت قلمًا من جيبي لأخط لها رقمًا على ظهر تذكرتها.

- ده رقم تليفون الوحده حاولي تطللبيني وقولي انا اخته.

- تمام.

- اوعي تنسي.

أمسكت القلم من يدي وتناولت تذكرتي بدورها وخطت رقم هاتف هي الأخرى.

- ده رقم تليفون اختي اتصل ولو حد تاني رد عليك اعمل ان الرقم غلط.

- اتفقنا.

- أشوف وشك بخير.

لا أدري يا عاليا سبب ذلك الخنجر الذي شعرت به وهو يشق قلبي إلى نصفين عندما قامت لتغادر.. وكأني أعرفها من زمن بعيد.

obeikandl.com

قمت وحملت عنها حقيبتها وأنزلتها لها .. لم أستطع أن أتركها تصوري! وكأنني ضال قد وجد لتوّه مبتغاه وطريقه .. ظللت واقفًا أمامها خارج باب القطار الذي كان بدوره قاسيًا معي .. فتوقف لفترة طويلة هذه المرة في محطة الأقصر، وأنا أنظر لها في ثبات وتنظر لي.

لو أن بمقدوري أن أوقف الزمان عند لحظة بعينها لفعلت ذلك في تلك اللحظة الكونية.

..وفجأه تحرك القطار على مهل ركضت لألحق به .. قفزت من الباب بصعوبة، وما إن أصبحت داخله حتى التفت.. لأجدها وقد غابت.

تلت ذلك أيام كنت لا أعرف نفسي فيها حقًّا، وكأنني أفتقد شيئًا ما، شيء لا أدري كنهه ولكني أفتقده .. حاولت الاتصال بها ولكن دون فائدة، لا أحد يرد، حتى اعتقدت أن هذا الرقم غير موجود بالخدمة، تسعة أيام وأنا على هذا الحال..

وفي اليوم العاشر أبلغني قائد الوحدة أن أختي هاتفتني لتبلغني أنها سوف تسافر في قطار القاهرة بعد غد..

أختي؟؟ إنها هي!

كدت أرقص فرحًا... كنت قد فقدت الأمل في أن أراها ثانية، وكأنها طيف من الفتون مر على قلبي في غفلة من لزمان..

لا لن أضيع تلك الفرصة..

قمت بعمل محاولة مع القائد لتقديم موعد مأمورية كنت سأقوم بها بعد أسبوع .. واستطعت إقناعه بأعجوبة وتعللت بأختي التي يجب أن أراها لأمر ضروري.

في اليوم الموعود ركبت القطار ووضعت حقائبي على المقعد المجاور، ووقفت أمام الباب من أسوان إلى الأقصر، لم أستطع الجلوس لحظة،

حتى إن الكمسري بات ينبهني كلما مر.

- يا سيد كرسي حضرتك فاضي.

- يا سيدي عاارف .. انا عاوز أقف شوية..

فينظر لي ويهز رأسه متعجبًا من أمري ثم يتركني لحال سبيلي ويذهب.

حتى وصل القطار إلى محطة الأقصر أخيرًا.. وأخذت أنظر إلى الركاب بشغف ولهفة.. أفتش عنها في كل الوجوه، ولم أرها! حتى بدا القطار في التحرك بالفعل .. وأنا أكاد أجن.

وفجأة لاحت لي .. وجدتها..

كانت قد جلست على مقعد آخر، ولكننا قمنا بتبديل المقاعد مع من بجوارها بشكل ودي.

- ياااه للمرة التانيه .. اتقابلنا.

- وبرضه في القطر.

وقبل أن أسهب في فرحتي صدمتني بالخبر.

قالت بأنها مضطرة للسفر مع والدها .. الذي طلب منها الحضور بسرعة لأن ميعاد السفر تم تقديمه ، وبأنها هاتفتني لتراني للمرة الأخيرة.

- وأختك؟

- مش هينفع أقعد عندها.. مش هستريح..جوز أختي بيضايقني.

- والسفر امتى؟

- بعد ٤٨ ساعه.

٤٨ ساعة وتفارق البلد وأفارق أنا قلبي الذي تخلى عني وبات على استعداد كي يخرج من ضلوعي ويسافر معها مخلفًا جسدي وقد فارق الحياة.

obeikandl.com

لم أحاول تلك المرة أن أحدثها طويلاً.. علني خفت أن أتعلق بها أكثر وهي ذاهبة دون رجعة.

حاولت ألا أصنع معها المزيد من الذكريات الجميلة.. وألا أملأ روحي من عبيرها، وألا أملأ عيني من وجهها الصبوح .

وحينما وصل القطار إلى القاهرة لم أستطع أن أمنع تلك الدمعة أو أخفيها.. دمعة من ظن أنه وجد حبًّا طاهرًا .. وقبل أن يصدق زمانه جاءت سخرية الأقدار لتطيح بآخر أمل له.

أتعلمين يا عاليا أنني لم أعرف اسمها؟!

لم أسألها.. وإن أتذكر تفاصيل وجهها إلى يومي هذا.

قــربت غريب وبعـــدت حبيب

وجمعـــت حبيب على شمل حبيب

والقـــرب نصـــيب والبعد نصيب

ما تقـــــــول يا وابـــــــــور

●●●

- لم تدر لمَ لم تذهب إلى المنزل .. فقد قالتها للمراكبي بتلقائية غريبة.. وبصرامة جعلته يتجنب حتى سؤالها عما بها.. ويتحرك بالقارب إلى مخبأها..

وما أن وصلت حتى توجهت إلى ركنها وافترشت الأرض أمام النهر.. كاتم أسرارها.

كثيرًا عندما كانت تشعر بأن المشاعر تتضارت بداخلها وبأن عقلها يحمل طنًّا من الأفكار أو يزيد.. كانت تلجأ إلى إخراج كل تلك الأفكار بكل أريحية على ورقة صغيرة، حتى إذا شعرت ببعض الراحة.. اقتربت من صفحه النهر وألقت بالورقة إليه.. وكانت بذلك تتحايل على الدموع كيلا تصل إلى مقلتيها دائمًا ، لذا كانت توقن من داخلها بأن النيل هو كاتم أسرارها الوفي.. ربما هذا هو ما دفعها للذهاب إلى أحضانه والاحتماء والالتحاف به في وقت ضعفها هذا..

وكعادتها أخرجت من حقيبة يدها مذكرة تحملها دائمًا وقلمًا..

مرت من أمام عينيها - لوهلة - كل الإحباطات التي تعرضت لها طوال حياتها.. أسندت المذكرة على ركبتيها وبدأت تخط كل ما يجيش بصدرها.

«يا الله، لم تصر على أن تحملني ما لا طاقة لي به، ألا تعلم أنني لا أقوى على حمله وحدي .. كيف لي أن أتحمل خيبات مستمرة في كل من حولي وأظل صامدة كما أنا..

خيبة أملي في أمٍّ وأبٍ آثروا السفر وجمع المزيد من الأموال على أن يعتنيا بابنتهما الوحيدة .. أي أبوين هؤلاء؟

أنا بائسه.. من أكثر مني يأسًا في تلك الحياة؟؟

وكيف كنت سأتحمل سخافات تلك الدنيا بدونهما لو لم يكن بجانبي عمي يشدد من عضدي ويجبر كسر قلبي..

حتى هذا العجوز تركني وحيدة وذهب إلى عالم اللاعودة .. لم تحمله الشفقة هو الآخر على المكوث بجانبي أو حتى على أن يأخذني معه.

فقط تركني مع بقاياه.. مع سامح.. هذا الصديق الوفي الذي لم يصمد كثيرًا أمام تدللي ودفعني باحتياجاته المستمرة إلى الهرب بعيدًا عن قفصه .. أردت فقط يا رب أن أحلق .. أن أكون حرة نفسي لمرة واحدة في حياتي..

حتى عندما أردت التحليق سقطت ليُكسر جناحي من جديد .. فمحمود ذلك الخائن .. قضى على البقية الباقية مني.. من يظن نفسه كي يفعل بي هذا.. كيف تسول له نفسه أن يمس كبريائي.. ذلك القذر! ولكنه ليس ذنبه أنه ذنبي أنا التي منحته فرصة الارتباط بمثلي.. كان سامح على حق عندما شكك في أخلاقه».

اقشعر بدنها قليلاً عندما وصلت إلى تلك النقطة .. تخيلت وجه سامح الساخر وهو يذكرها بقوله: (حترجعيلي).

«لا لن أسمح له بالشماتة --- لن أسمح له بالتحذلق على.. لن أعطيه الفرصة أبدًا ليثبت أنه كان على حق من البداية.. لن أسمح له ولن أسمح لهؤلاء الساذجات بأن يتهامسن من خلفي بعد أن كنت أرى الحسد يملأ أعينهنّ ونفوسهنّ مني».

وهنا لاحظت تلك البقعة الصغيرة التي بللت جزءًا من طرف الورقة لتجعل الحبر باهتًا عليها.

وانتبهت.. لقد نزلت دمعة من عينيها دون أن تشعر بها..

لقد بكت!

رفعت كفها إلى عينيها بتلقائية لتجد آثار تلك الدمعة فعلاً.

التفتت تنظر لصفحة النهر بعدوانية لم تألفها.

لقد خاب ظنها فيه تلك المرة.. لم تستطع أن تتحايل على دموعها.. ولم تضل الأخيرة طريقها إلى المقلتين ، وذهبت لتعلن عن نفسها بكل تبجح وكأنها لا تخش أحدًا.

«يا غبية» صرخت بكل قوتها وهي تمزق الورقة ثم تلقيها أرضًا في عنف..

وكأنها تتبرأ من كل ما فيها، من كل كلمة كانت السبب في ضعفها ومن ثَم دموعها.

وهبت واقفة كالملسوعة، تلعن كل شيء، ضعفها .. دموعها .. الموت .. سامح .. محمود .. صديقاتها .. وهذا النهر البائس ..

للحظة أحست بأن كل الكون قد اجتمع وتآمر عليها ليهزمها.. فقط ليراها ضعيفة .

شعرت ببركان غضب مكبوت يستعير بداخلها .. تركت المكان واستقلت القارب ليذهب بها إلى المنزل وقد قطبت ما بين حاجبيها عابسة تفكر في أمر كان قد استقر في عقلها..

●●●

obeikandl.com

obeikandl.com

الدمعة الرابعة عشر

- انتفاضة الخبز - ١٩٧٧

كنت أرقد في الظلام .. وتلك الرائحة العطنة تزكم أنفي وتصيب روحي بالغثيان.

كنت منهك القوى .. رث الثياب ممزقها.

وقد استطالت لحيتي على نحو بائس.

مما أضفى علي مظهر السجين كما يجب أن يكون ..

تطلعت حولي إلى تلك الزنزانة الكئيبة التي أجلس فيها.

إن كان مصطلح الجلوس يتماشى مع الوضع الذي كنت أنا عليه تطلعت إلى تلك الأجساد المسجاة من حولي والمليئة بالكدمات والندبات وقد انفجرت الدماء في أكثر من موضع.

سقط جفناي في إعياء وانطلق عقلي يسترجع أحداث ثلاثين يومًا كانوا أسود ما مر بي في حياتي.

بدأت الأحداث يوم ١٨ يناير حينما انتهت عطلتي الشهرية في الإسكندرية، وتوجهت إلى محطة القطار أرتدي ملابس عادية – ملكي – لأن التعليمات كانت تقتضي بعدم **لبس** الزي العسكري عند السفر لمسافات بعيدة.

obeikandl.com

وصلت المحطة وكانت معي خطيبتي جاءت لتوديعي، أجلستها في كافتريا المحطة ورحت أنا أختم تذاكر العودة لأسوان ..

شباك التذاكر كان عبارة عن رواق حديدي ضيق يكفي بالكاد لطابورين من الجنسين.. وذلك ليتسنى لموظفي الشباك تنظيم الصف في حالات الذروة والتزاحم..

كان ذلك حينما أحسست بحركة مريبة في المكان ورأيت هؤلاء الشبان يهرولون ناحيتنا حيث شبابيك التذاكر ومن ورائهم جنود من الشرطة ينهالون عليهم بالهراوات .

وكان هتافهم يشق السماء «لا إله إلا الله السادات عدو الله!».

ارتعبت وارتبكت أوصالي.. أي هتاف هذا ومن هؤلاء؟!.. سمعت ممن حولي أن هذه كانت مظاهرة بالخارج ، وحينما انقضت عليهم قوات الأمن أمسكوا ببعضهم وهرب الباقون إلى الداخل حيث راحوا يختبئون وسط المسافرين في شباك التذاكر .

وهو ما اصطلح عليه إعلاميًّا "بانتفاضه الحرامية» وشعبيًّا «بثورة الخبز».

والتي كانت نتيجة ارتفاع مفاجئ لأسعار المواد الغذائية.

ركضوا نحونا ولاح من ورائهم قوات من الشرطة بالهراوات والصدادات في أيديهم .. وتأزّم الموقف أكثر.

اختلط الحابل بالنابل وزاد الهتاف.

«يا حاكمنا في عابدين، فين الحق وفين الدين».

واختلط الشباب المتظاهرون بمن كان يقف في الشباك.. وقامت القوات بتطويقنا جميعًا.

وراحوا يضيقون الدائرة علينا شيئًا فشيئًا، ثم أمرونا بالجلوس أرضًا وبخلع الأحذية كي لا يجرؤ أحدنا على الهروب.

ثم ساقونا بالهراوات إلى سيارات البوكس زمرًا!

لم أصدق هذا الذي يحدث.. فأنا ضابط ولا قِبل لي بما يصير ها هنا..

طالما ناديت .. اعترضت .. صرخت .. بكيت.. **سببت**.

ولكن هيهات .. لا أحد يوليك اهتمامه أو يجيبك.. وإن رد عليك فيكون بلعنك بأقذر الألفاظ والشتائم.. فتضع لسانك داخل فيك وتصمت من جديد.

وصلت سيارات البوكس إلى سرية شرطة عسكرية في مصطفى كامل .. بالإسكندرية حيث مكثنا هناك سبعه أيام، ثم تم ترحيلنا بعدها بالقطار..

وكان كل خمسة أشخاص مكبلين بكلابشات تتصل بسلاسل فولاذية مع بعضهم البعض ويجر أحدهم الآخر.

تم ترحيلنا إلى السجن الحربي بالجبل الأحمر.. وما أدراك ما الجبل الأحمر آنذاك!!

يبدأ يومنا من الخامسة صباحًا، شقاء في شقاء تتخلله الإهانات والتعذيب والضرب ونحن بالملابس الداخلية.

أما الوجبات فلم تتعد بضع لقيمات توضع لك أرضًا مع عدس أو فول وكانت مدة الأكل عشر دقائق تقريبًا .. أما قضاء الحاجة فلن أذكر لكي الكيفية كي لا تصابين بالغثيان.

كانت أيامًا سوداء فلا أحد يسمعك مهما صرخت.. مهما بكيت..

أذكر رجلاً كبيرًا كان معنا، أتى يوم فقد فيه أعصابه مما يحدث له من معاملة حقيرة لا يتحملها الحيوان – كان هذا الرجل يقف أمامي في طابور التذاكر –.

فراح يصرخ في هستيريا ويسب الذات الإلهية في جنون ونحن نقف لا ندري ماذا نفعل، مشفقين عليه.

وفجأة انفتح باب الزنزانة وسأل العسكري الضخم الجثة عمن كان يصرخ.

فأجاب الشيخ بشجاعة أحسده عليها:

- أنا.

رد عليه وكلماته تقطر سخرية مقيتة:

- طب تعالى متزعلشي.

وما أن خطا باب الزنزانة حتى هجم عليه ثلاثة أشخاص ضخام ذوي بذلات حمراء وتكالبوا عليه كتكالب الذباب على العسل حتى ساووه بالأرض.

كانت تلك الذكريات تمر في رأسي تصارعه.. حين فتح الباب ونادوا على اسمي.

تثاقلت على نفسي وقمت.. قادوني إلى مكتب فاخر وأجلسوني .

دخل ضابط شاب ومعه اثنان يحملان نفس الرتبة وقفوا بجانبي وجلس هو خلف المكتب وسألني أن كنت ضابطًا بالجيش أجبت بالإيجاب..

- وليه مقلتش؟

قلت له وصوتي لا يكاد يخرج من حنجرتي:

- مقلتش إيه يابيه .. دنا بقالي شهر، طول النهار والليل أقول أنا ظابط جيش .. أنا ظابط جيييش ولا حد كان بيسأل فيا.

obeikandl.com

هز رأسه متفهمًا بطريقة تمثيلية وقال وكأنه يلقي خطبة عصماء:

- احنا أسفين.. انت عارف حال البلد ولازم يكون فيه ناس مظلومين ولازم نستحمل بعض.

- بس كده؟؟

قال وقد تبدلت ملامحه فجأة:

- عايزني أعملك إيه أبوس دماغك ياروح امك مقلنا آسفين خطيبتك بلغت ووحدتك قلبوا الدنيا عليك..

وبعد الهوجه مخلصت أدينا بنقولك آسفين.

قلت في هزيمة من أثقلته الإهانة:

- اللي تشوفه يابيه.

قال لأحد الواقفين بجانبي:

- خليهم ياخدوه يدوله هدومه علشان يتفضل من غير مطرود من هنا.

قمت مستسلمًا وبينما الحارس يسلمني الكارنيه والملابس نزلت دمعة ساخنة على وجنتي..

دمعة حملت كل قهري وانكساري الذي تكوّن في داخلي .. لثلاثين يومًا متصلاً.

obeikandl.com

الدمعة الخامسة عشرة

- حكايتي مع الثانوية العامة – ١٩٧٩

كنت أجلس في الحنطور سارحًا أتابع حركة الفَرَس المتمايل المنتظمة خطواته في تناغم مسكِر.. طالما أحببت صوت سنابك الخيل، إلا في تلك المرة.

لم أسمعه إلا ضجيجًا يصم أذني ويزعج حواسي.

كان شعورا الغل والندم الذين يجتاحاني يشوشا على أي إحساس آخر في تلك اللحظة.

الغل على نفسي والندم على القرار الذي كنت قد اتخذته ونفذته.

من قال إن إعادة مذاكرة مواد الثانوية العامة في سني هذا قرار متزن..!

فأنا كنت قد بلغت التاسعة والعشرين من عمري .. وكنت قد وصلت إلى راتب جيد في الجيش أبعث بنصفه لأمي وإخوتي بسوهاج وأستقطع جزءًا منه لمصروفاتي الشخصية وأدخر الباقي.

وكونت صداقات عديدة هنا في أسوان .. بمعنى أصح أصبحت حياتي مستقرة إلى حد ما.

obeikandl.com

ولكن دائمًا ما كنت أشعر بأن هناك ما ينقصني.

.. فكرت في أنني حين أتزوج وأنجب بنتًا رقيقة مثلك.. هل سترفع رأسها فخرًا بأبيها الذي لم يحصل على شهادة عليا.

أم أنها ستشعر في قرارة نفسها بأنها أقل من أصدقائها..

لم يكن هذا الاحتمال يطرق بابي حتى كنت أنفضه عن رأسي سريعًا وأستبعده..

إلى أن قررت أكثر قرارات حياتي جرأة.. أنا سأتقدم للانتساب لإحدى الكليات النظرية..

وبعد أن سألت عن الإجراءات أخبروني بأنه يجب أن أعيد الثانوية العامة لأن ثانويتي قديمة! ..

ووافقت..

رغم كل ما لاقيته من تثبيط وسخرية من الضباط زملائي تحديت نفسي ووافقت..

كان لدي صداقات كثيرة كما أخبرتك ، فمن ضمنهم كان بعض المدرسين .. استعنت بهم في شرح المواد المختلفة على فترات، وشرع مدرس الإنجليزية في شرح المنهج المقرر على الإعدادية أولاً كي ينشط ذاكرتي.

obeikandl.com

أما الفرنسية فاعتمدت فيها على مسيو "متّى» وكان صديقًا لي أيضًا ..

كنت أوصل الليل بالنهار.. وآخذ كتبي معي إلى الوحدة .. في فترات النوبتجية.. حتى الأيام التي كنت أعلم فيها بأن العمل لا يحتاجني كنت أستأذن القائد كي أذهب البيت مبكرًا لأذاكر، كان يدقق النظر بي وكأنه يستشف ما بداخلي.

- حتذاكر يعني؟؟

- أيوه إن شاء الله.

- يعني حيطلع منك حاجه في الآخر؟

فأجيبه في حرج:

- حتشوف حضرتك يافندم.

فيلوح لي بيده:

- لا نشوف يا سي ميلاد.

وبالفعل.. شحذت كل حواسي في المذاكرة، تحديت نفسي وكل من حولي .. ووصل بي الأمر أنني كنت أجيب على كل سؤال في أي مادة كانت تقابلني.. تفوقت على نفسي فعلاً

حتى إن أساتذتي كانوا يدعونني لحضور المجموعات المدرسية ليباهوا بي الطلبة ..

كنت جاهزًا تمامًا للامتحان .. والذي أجبت فيه كل المواد كأفضل ما يكون، وكنت أنتظر لأرى نتيجة تعبي في شغف، وفي يوم النتيجة ذهبت إلى مبنى المحافظة.. حيث كان المتبع أن يخرج مسؤول ليقرأ أرقام الجلوس الناجحة.. والتي.. لم يكن رقمي منها!

انتظرت أن ينطق رقمي وطال انتظاري ولكن للأسف ... كان انتظارًا بلا طائل.

لم تستطع قدماي حملي.. لم أفهم شيئًا.

متى وكيف ولمَ؟

أوقفت أول حنطور وأنا لا أكاد أرى أمامي.

أبعد كل هذا التعب؟

لقد ذاكرت.. فعلت كل ما بوسعي أقسم على ذلك.

وماذا عن زملائي المنتظرين بالوحدة.. كيف سيكون شكلي أمامهم .. كيف هو شكلي أمام نفسي وقد خسرت رهانها.. يا طلبة انت يا طلبة.

كان هذا صوت مسيو متّى الذي كان يستقل حنطوراً جاء على الطريق المعاكس .. لم أسمعه أو سمعته ولم أتبينه لشدة شرودي.

فما كان منه إلا أن جعل سائقه يدور ليكون ورائنا.

واستطاع أن يصل إلى جانبنا وانتزعني من شرودي ..

- إيه يا طلبه بتعمل نفسك مش سامعني؟

نظرت بعينين لا ترى وقلت في خفوت :

- أهلاً.

وأمرت السائق أن يتوقف فشد لجام الفرس ليبطأ من سرعته تدريجيًّا إلى أن توقف ، ونزل الأخير من حنطوره ليركب بجانبي.

- هه، نقول مبروك؟

- مبروك على إيه.. عالخيبة؟

- خيبة؟ انت شكلك عاوز تاكل عليا الحلاوة.

- ياعم حلاوة إيه بس .. سيبني في حالي وحياة ابوك.

- يعني إيه؟

- يعني سقط.. سقط استريحت؟ قلتها بعصبية لم أستطع السيطرة عليها .

obeikandi.com

صمت برهة وهو ينظر إلي وكأنه لا يصدق، ثم صاح فجأة:

- والمسيح الطاهر مينفع .

التفت له بكياني كله وأخبرته أني لا أكذب عليه ولا أهزأ به وأنني فعلاً قد رسبت وأن يتركني بحالي.

- بقولك والمسيح الحي ماينفع .. أكيد فيه حاجه غلط.. لف ياسطى وروح بينا على المديرية التعليمية.

- يا متّى ارحمني يا اخي انتا إيه مبتحسش؟ عاوز تحزنّي تاني على نفسي؟

وكأنه لم يسمعني مد يده داخل جيب قميصي ليخرج ما به من نقود.

- كام دول هه.. تلاتين جنيه .. حلوين.. لو طلع كلامي صح هاخد منك الفلوس دي.

وكأنني أود أن أتعلق بأي أمل يلوح لي في الأفق.

- بس كده لا وحجيبلك قدهم كمان.

كان مبلغ الثلاثين جنيهًا يا ابنتي مبلغ محترم آنذاك.. ومع ذلك كنت على استعداد لدفعه كله كحلاوة لمتّى إن كان كلامه صحيحًا.

وصلنا إلى المديرية تركني بالخارج ودخل هو ليرى النتيجة في الكشوف بنفسه.

لن تتخيلي إحساسي وقتها..

قلق.. خوف.. أمل.. ترقب .. استندت على الحائط ورائي لأن قدماي لم تعد تتحمل فعلاً، حتى رأيته قادمًا من بعيد وابتسامة عريضة تعلو فمه.

وأنا على جمودي أترقب.

- إيه ياعم مش قلتلك.. فين الحلاوة بأه؟

- يامتّى ابوس رجليك بلاش هزار انا مش متحمل.

- هزار؟؟ طب تعالى.

أخذني من يدي إلى الداخل وأراني الكشف .. الاسم وأمامه رقم الجلوس وأمامه المجموع.

لم أصدق عيناي.

لقد نجحت.. وبتفوق أيضًا.

ما حدث بعد ذلك كان عسير الوصف لأنني لا أتذكره.. ولكن متّى يقول إنني ظللت محملقًا في الكشف والدموع تنهمر من عيني

بلا توقف، ثم أخذت أضحك بهستريا وأقفز في الهواء ثم حملته وجريت به خارجًا من المبنى حتى إن كل الموجودين كانوا يضحكون على حالتي.

ما أتذكره أنني أخرجت من جيبي كل النقود وأقسمت عليه بأغلظ الأيمان أنها له كلها وأنني سآتيه بغيرها.. فلولاه كنت قد استسلمت ليأسي وللخطأ الذي حدث في المحافظة وما كنت تقدمت منتسبًا في الكلية بعدها بشهور.

وما أتذكره أنني بكيت.. بكيت كثيرًا وقتها وأنا أحمد الله الذي لم يضيع مجهودي هباءً.

ما زالت كلمات القائد ترن في أذني والذي أمر بتوزيع الشربات علي كل الوحدة العسكرية من أجلي..

«أنا كنت واثق أنك عندك إرادة.

ويشرفني أني عاصرت في أثناء خدمتي حالة زيك.. أبشرك يا ميلاد أنك حتنجح في حياتك لأنك طموح.. وعمر الطموح ما كان له سقف».

●●●●●

obeikandl.com

- لا تدري كيف وصلت إلى المنزل يومها .. مضت نحو أسبوع لا ترى الشارع .. طبعًا لم تستجب لأي مكالمات تأتيها من الأصدقاء.. فهي لن تستطيع مواجهة نظرات الشمّاتين أو حتى عطف المحبين.

حتى سامح هاتفها مرتين لم ترد واكتفت بإرسال رسالة .. أنا كويسة مخنوقة بس شوية من الشغل.. لما أفوق حكلمك ولو سمحت متزعجنيش تاني.

فهي لم تدر أكان على علم بما جرى من خطيبها السابق أم أنه يطمئن عليها وفقط؟

ظلت وحيدة تفكر، وفي اليوم الثامن أخذت القرار.

ستسافر إلى والديها بدبي وتترك كل شيء وراءها.

كان هذا الخاطر قد دار بخلدها منذ أسبوع على ضفاف النهر في جزيرة الفرعون لتعود وتدرسه على مهل طوال الأيام السابقة...

ولمَ لا؟

فمنذ مات عمها والمكالمات لم تنقطع منهما كي تذهب للعيش هناك..

ولكنها لم تستمع..

أما الآن فلا شيء لها في هذا البلد..

عمها توفي وابنه يتلاعب بكبريائها أشد التلاعب.

هل جرحها ثقته في نفسه وأزعجتها قراءته اللامحدودة لها وتنبؤه بما سيحدث مع خطيبها وتنبؤه بالرجوع؟

هل كل ما يشغلها أن تقطع عليه الطريق وتفسد عليه متعته وانتشاؤه؟

فالأنثى عندما تحب....

تربط كيانها كله بمزاج الرجل المتقلب دائمًا.

فيكون في رضائه الرضا ..عندما يغضب تغضب الدنيا من حولها ..عندما يدللها تشعر أنها أجمل نساء العالم ..فالأنثى ..عندما تحب.. يتمثل كل العالم في حب حبيبها ..ويكون هو المؤشر الذي تضحك من أجله الخلائق ويتآخى الأعداء، وتتوصل أميركا وروسيا إلى اتفاق مشترك.. ويشكل الكلاب مع القطط فريقًا لإيواء الفئران الضالة.. وتكون النار بردًا وسلامًا، وتتناوب الشمس والقمر مع الكواكب على إرضائها.

فهل أحبت سامح حقًّا..؟ ربما..

وربما هي الأنفة التي تمنعها من الاعتراف بخطئها أمام أي مخلوق حتى وإن كان أمام ذاك الصديق المتواري.

وقد يكون السببان اجتمعا معًا ليجعلاها تقر قرارها وتصر عليه

على أن تقنع أهلها بأنها ستعمل إلى أن تستطيع أن تستأجر بيتًا منفصلاً هناك.

وسيتقبلون الأمر، بالتأكيد سيفعلون..

فمن يأمن على أن يترك ابنته لتتربي بعيدًا عنه في بلد آخر كل تلك السنوات لن تؤذيه فكرة أن تستقل عنهم بحياتها في نفس المدينة.

كان هذا هو ما وقر في قلبها وعقلها فاتخذت القرار دون أن تبلغ أحد ستذهب وتترك كل شيء وراءها.. سامح بتحديه السافر لها وهزيمتها أمامه.

محمود بخيانته ..

شماتة الأخريات بها..

النهر الوفي الذي لم يعد كذلك.

هاتفت أصدقاء لها بمطار الأقصر لحجز تذكرة لدبي في ظهيرة اليوم التالي.

ثم هاتفت مدير باخرة صديق كي تستقلها للأقصر.

على أن تتحرك الباخرة عند غروب هذا اليوم لتصل الأقصر في اليوم التالي بعد الشروق بسويعات قليلة..

كان بإمكانها السفر من أسوان مباشرة.

ولكنها أرادت أن تقضي ليله أخيرة في أحضان النيل..

ربما أرادت أو تودع ذلك الطريق الذي سافرت فيه عشرات المرات مع الأفواج ذهابًا وإيابًا.. ربما أرادت أن تنهل من سحر النيل ليعينها على المجهول الذي ستسافر له .. فمع غضبها منه إلا أنه ما زال ساحرًا..

حزمت أمتعتها.. ونزلت إلى الكورنيش تجر وراءها حقيبتها الوحيدة متجهة إلى مرسى البواخر..

ولما كان ما زال أمامها ساعة ونصف على الموعد.. فقد ذهبت لتبتاع برشامًا منومًا من الصيدلية.. تعلم أنها ستحتاجه في ليلتها الطويلة تلك.. ثم راحت لتجلس في «حديقه فريال» القريبة من المرسى.

جلست على إحدى الدكك الخشبية الموجودة ..

تلملم شتات نفسها وتودع أشجار الحديقة العتيقة وقد طُبعت على كل ورقة فيها ذكرى لها.

تململت في جلستها قليلاً..

كانت تظن أن وصولها مبكرًا سيرحمها من جحيم التردد.

ولكن هيهات..

فها هي تجلس ساكنة بينما عقلها ينطل كالصاروخ ..

يحلل الأحداث الفائتة.

يستنتج.

ويقر قرارها.

بينما يعانده القلب كليًّا ويلقي باللوم على ضعفها ويدين هروبها..

وبين العقل والقلب تاهت حيث اللامكان واللازمان.

«توقفا عن الجدال للحظة.

لحظة واحدة فقط».

زفرت في حنق وحاولت أن تشغل نفسها بأي شيء من حولها.. الحديقة شبه خالية إلا من بعض الأطفال وسيدة سمينة تقوم بتنظيف الأرض الخضراء من بقايا أكياس الحلوى الفارغة.. وصوت أم كلثوم

obeikandl.com

الذي تعودت أن تسمعه يأتي من مكان ما كلما ذهبت إلى الحديقة.. وكانت تشدو بالأطلال.

حاولت أن تسترخي قليلاً وتهدئ من توترها، وهي تتطلع إلى حركة البواخر المتكاسلة الآتية إلى المرسى هناك.. حركة السيارات التي لا تهدأ على الكورنيش.

و...

- «الكراس دي تبعك يا آنسة»؟

ارتعدت فجأة من قرب ذلك الصوت الأنثوي الحاد الذي اقتحم عزلتها الذاتية فجأة.

نظرت في بلاهة لتجد السيدة السمينة على بعد خطوة منها تمسك في يدها كراس .. كيف لم تشعر بها وهي تنظف بجانبها.

- نعم؟

- بقولك الكراس دي لاقيتها .. تخصك؟

نظرت إلى الكراس في بلاهة لا تدري أهو يخصها فعلاً أم لا:

- لاقيتيه فين يعني؟

- تحت الكرسي اللي جنبك ده .. كان واقع باين.

نقلت بصرها بين السيدة وبين ما تحمله.

لا لا يخصها على الإطلاق.

- آه ده بتاعي.. شكرًا.

وبابتسامة باهتة مدت يدها لتأخذه من السيدة التي تركته لها وابتعدت تكمل ما كانت فيه.

قلّبت الكراس بين يديها .. كراس عادي من فئة المائتي صفحة.

تم تجليده بالجلاد الأسود حفاظًا عليه.. ثم لُصق عليه «تيكيت» كبير مكتوب عليه بقلم أسود حبر وخط متأنق.

إليكِ يا عاليا

«ميلاد عبد الصبور»

بهتت .. ما هذا الغموض.. من ميلاد هذا ؟ ومن عاليا؟

ثم ما الذي جعلها تدعي ملكيتها لهذا الشيء من الأساس؟

ولمَ أخذته.

ربما هو الفضول.

ربما هو الملل.

ربما هو القدر.

قطع تفكيرها رنين هاتفها .. نظرت إلى شاشته لتجد اسم مدير الباخرة.. بالتأكيد أراد أن يخبرها بأن الوقت قد اقترب.. وضعت الكراس في حقيبة يدها ..

فتحت تطبيق الـwhats app على هاتفها وأرسلت رسالة كانت قد أعدتها في الليلة السابقة لسامح.

تخبره فيها بنيتها على السفر لأهلها.. وبأنها لم يتبق لها أحد في ذلك البلد.. وأنها لن تسمح لأذنها بسماع رنة الشماتة في صوته .. لذا فقد أرسلت له تلك الرسالة.. ثم ودعته بجمود..

أرسلتها ثم أغلقت هاتفها.. في الواقع كانت خائفة من تأثيره عليها.. تعلم أنه سيرفض قرارها.. سيأتي إليها ليمنعها إن لزم الأمر.. وتعلم أنها في قرارة نفسها تود لو لم تذهب ولكن شموخها يأبى..

توجهت متثاقلة إلى الباخرة حيث استقبلها الموظف الموكل بذلك.. راجع بياناتها على مهل ثم سلمها بدوره إلى موظف آخر ليفتح لها غرفتها في الطابق الثاني.. مع حامل الحقائب.

دائمًا كانت تنزعج من كل الإجراءات الروتينية..

في المصالح الحكومية.. في دخول المناطق الأثرية وحتى قبل السفر في البواخر.. وفي الأخيرة تنزعج من تثاقل حامل الحقائب دائمًا في القيام بعمله إن لم تعطه بقشيشا محترما.

ولكن في هذا اليوم بالذات لم يثير ذلك حفيظتها..

كانت صبورة لآخر درجات الصبر.

ربما أحست للمرة الأولى أنها في سبيلها للخلاص.

وبأن عليها أن تحتمل تلك السخافات الأخيرة ثم تترك كل شيء وراءها وتذهب.

بلا رجعة..

●●●

obeikandl.com

الدمعة السادسة عشرة

- حكايتي مع الحجرة ١٧ – ١٩٨٠

كلمة «عفريت» مستهلكة جدًّا في الصعيد .. تستخدم لتوصيف أي أمر غير مفهوم.. وتلقى تصديقًا وإيمانًا كبيرًا .. وتتكاثر الروايات والأقاصيص التي تدور حولها.

كنت أحب الاستماع إليها في صغري، مثلي كمثل جلّ الأطفال هناك.. وسبق ورويت لكِ قصتي مع الباتعة أو مع عفريتة السيل الريفي.

أن تَربي في مكان يتحاكى بتلك القصص أكثر من تحاكيه عن أسعار الخضروات وأحوال الناس.. أمر يجعلك أكثر قابلية لتصديقه عند كبرك.

بدأت تلك القصة حينما سافرت لمدينه قنا لأقضي بعض أعمالي الخاصة، وأرغمت على أن أبيت ليلتي هناك لتأخر القطار العائد إلى القاهرة.

لم أجد أي فندق مقبول في تلك الساعة المتأخرة.. ناهيك عن أن المبيت ليلة واحدة فقط أمرًا يثير الشكوك.

ظللت أتجول في شارع المحطة وأنا في إعياء شديد.. أريد فقط مكانًا أنام فيه.

أي مكان.

كان ذلك عندما طالعتني واجهة تلك اللوكاندة القديمة التي تقبع أسفل خمس درجات متسخة محطمة.. نزلتها ببطء خشية السقوط

ورائحة الرطوبة تزكم أنفي ..

على يميني ووجدت رجلاً أربعيني يجلس خلف مكتب قديم متهالك .. على أريكة وليس مقعدًا.. كان سمينًا، ذا وجه مستدير وشارب كث لا يليق على وجهه.. يجلس في استمتاع يدخن الأرجيلة، ويطالع جريدة قديمة وكأنه غير عابئ بأي شيء في الحياة بالخارج.

تنحنحت لألفت انتباهه فبدأ كأنه لم يسمع..

قلت بصوت قد أنهكه التعب:

- سلامو عليكم.

انتبه لي ولكنه رد بآلية:

- وعليكم السلام ورحمة الله، أؤمر.

- عاوز أوضه.

- كام يوم؟

- أبات فيها بس.

قال بعدم اكتراث:

- مفيش .

- ولا أوضه واحدة.

- ولو فيه حخبي عليك ليه، ده رزق وجالي.

ثم أخذ نفسًا آخر من أرجيلته، وشملني بنظرة من رأسي وحتى أخمص قدمي واستطرد:

- هو مفيش غير الأوضه ١٧.

- طيب يعني هيا مش فاضيه؟؟

قال في ترد:

- قال في خبث: أيوه.. بس.. أصل محدش بيحب يدخلها اكمنها آخر دور وشباكها طالل على المنور.

- ياعم منور منور ده هو سواد الليل.. بكام هنا الليله.

- احم ، الصبح ابقى آخد منك فلوس.. الصبح.

obeikandl.com

ثم وضع المفتاح أمامي وقال:

- آخر دور هتلاقيها مفيش غيرها.

قالها وأشاح بوجهه مكملاً أرجيلته والجريدة وكأن وقتي قد انتهى!

كان غريب الأطوار حقًّا.. ولكن إرهاقي وتعبي لم يترك لي خيارات كثيرة.. أخذت المفتاح وصعدت .. لم يكن الدرج الداخلي للوكانده بأحسن حال من درج المدخل المحطم .. كما أن الظلام كان يكسو كل شيء.

ألم يكلف نفسه هذا السمين ويشتري مصباحًا.

وصلت إلى الدور الأخير لأجد تلك الغرفة قابعة وحدها.. رغم أن كل الأدوار السفلية تحتوي على غرفتين وليس واحدة..

لم أدر سبب تلك القشعريرة التي انتابتني وأنا أدير المفتاح في الباب ..

دخلت وأضأت المصباح فإذا بها غرفة متوسطة الحجم مربعة.. بجانب بابها من الداخل دورة مياه بابها مفتوح، وفي المقابل أمامي سرير يعلوه نافذة.

تلك التي تطل على المنور إذن...

على اليمين هناك تسريحة وضع عليها زجاجة عطر فارغة ومشط قديم .. وعلى اليسار دولاب خشبي صغير.

خلعت الجاكيت الخفيف الذي كنت أرتديه وألقيته بإهمال على طرف السرير واستلقيت.. أخيرًا سأنام.

وبسبب إرهاقي غفت عيني قليلاً..

ولكني لم ألبث أن التقطت أذناي صوت غريب .. أشبه بالجرس.. أو كأن أحدهم يحرك كلبه بسلسلة مثلاً.

الغريب أن صوت السلسلة كان منغمًا.

كأن أحدهم يحدث بها لحنًا ما غير معروف لي.. وكان الصوت يعلو حينًا ثم ينخفض ثم يعاود الارتفاع كما تقتضي النغمة!

فتحت عيني ونظرت حولي والصوت مستمر.. قمت وأضأت النور ونظرت أسفل السرير لا شيء.. فتحت الدولاب الصغير متخيلاً أني سأجد فأرًا ما يلهو هناك..

لا شيء.. أيضًا.

وفجأة سكن الصوت تمامًا..

لم أعط للأمر أهمية أكبر مما يستحق..

لعله صرصور يصدر صوتًا كهذا، أعلم أن في تلك المناطق الحارة تكثر مثل تلك الحشرات.

أو لعلي أتخيل أو أهذي من التعب.

تمددت مرة أخرى غير عابئ على الفراش .. وكادت عيناي تغيب في السبات حينما سمعت الصوت مرة أخرى ولكن بذبذبات أعلى ونغمة أوضح.

- يادي الليله اللي مش عايزه تعدي!

تذكرت كلام الموظف بأن النافذة تطل على المنور.. لعل هذا الصوت يصدر من هناك!..

أضأت النور ثانية ووقفت على التخت لأتمكن من فتح النافذة.. التي تعلو رأسي مباشرة.

فتحته ونظرت للأسفل، لا شيء سوى الظلام، فركت عيني ودققت النظر لأتمكن من رؤية .....

- بتبص على إيه يا قليل الادب انتا...

ارتجفت..

نظرت في اتجاه الصوت..بالكاد رأيت تلك النافذة المفتوحة أمامي مباشرة.. يطل منها رجل بملابسه الداخلية، وتقف وراءه زوجته، ويبدو أنها ليست أفضل حالاً منه.. من أين جاءا؟

تلعثمت.

- انا آسف والله مشفتكو.
- ادخل واقفل الشباك ده خلي ليلتك تعدي على خير.
- حاضر..

أغلقت النافذة بعنف..

- **هيا ليله سودا.. طب والله لانام بأه.**

تركت النور مضاءً بعد أن كان الصوت قد سكن .. فردت الكوفرته الموضوعة على الفراش، نمت تحتها واضعًا الوسادة فوق رأسي كي لا أسمع أي شيء آخر..

وأرغمت نفسي على النوم.. وأنا ألعن تلك الليلة، وتلك اللوكانده وتلك المدينة.

في الواقع لم أبذل الكثير من الجهد في إرغامها فقد تولى عني الإرهاق ذلك.

رحت في سبات عميق تلك المرة ولم أسمع المزيد من الأصوات..

نمت وليتني لم أنم.

هل جربتِ إحساس أن يلقيكي أحدهم من الطابق الثاني عشر لتنزلي بسوء حظك على سيارة محملة بالطوب؟؟

هذا ما شعرت به ..

انتفضت فجأة وكادت روحي تخرج من حلقي، وأحسست بآلام شديدة في عمودي الفقري ورأسي .. وكان أحدهم قد ألقاني .. فتحت عيني دفعة واحدة وقمت جالسًا لأجد نفسي ملقى على تختي كما كنت ولكن.... في الجهة الأخرى من الغرفة!!

وجدت النافذة التي رأيت الرجل وزوجته عبرها وقد أصبحت مقابلة للتخت .. والتخت أصبح بجانب دورة المياه!

أنا أُلقيت بالتخت إلى الجهة الأخرى من الغرفة!

أحدهم ألقى بي السرير!!

هززت رأسي لأنفض عنه تلك التهيؤات .. ومسحت وجهي بكفيّ وأنا أقرأ المعوذتين.

أنا أتخيل.

أنا أتخيل.

التخت كان بتلك الجهة من البداية ، ولكنني لم أنتبه.

ولكن كيف؟؟ لقد وقفت فوقه اعتليته ونظرت إلى المنور وسبّني هذا اللعين وزوجته البدينة.. أيكون كل هذا تخيلات ..

وأنا مع تلك الخواطر إذ صنبور المياه القابع في دورة المياه بجانبي قد فُتح فجأة..

تسمرت لحظة جاحظ العينين.. ثم لم أتمالك أعصابي، وانتزعت نفسي من الفراش رغم الألم المنتشر بكل جسدي .. وجريت مهرولاً على الدرج وأنا أبكي وأولول كالأطفال!

ووقعت على وجهي من تعجلي عدة مرات وجسدي كله ينتفض.. وأنا أصرخ بشكل مستمر بلا انقطاع .

لا أدري كيف نزلت تلك الأدوار ووصلت للأرضي.. وجدت الأربعيني جالس يدخن أرجيلته بهدوء مستفز، صرخت فيه ودموعي تنهمر على وجهي.

- انتا يا راجل انتاااا.

التفت ببطء مستفز.

- خير يا بيه مالك.

- مالي إيه وزفت اييييه السرير اتنقل.

ابتسم ابتسامة صفراء لم تلبث أن تحولت لضحكة مستفزة.

قلت له:

- نعم؟ يعني إيه؟

- تعالى تعالى اعد جنبي وانا احكيلك..

ترددت.. ولكن لم أقو على الوقوف وأعصابي ترتعش.

ناولني كوب من الماء لأهدئ من روعي.

- اهدا يا أستاذ متبقاش أعصابك خفيفه كده.

- خفيفه إيه يعم انتا، بقولك السرير اتحدف بيا، هو انا بقولك شفت صرصار.

ضحك .. وضحك حتى بانت أسنانه الصفراء المنفّرة.

وربت على كتفي:

- طب اهدا بس، منا قلتلك من الأول مفيش غير الأوضه ١٧ وانتا وافقت.

obeikandl.com

- نعم؟ يعني إيه؟

- انا هحكيلك.

وبدأ يسرد لي من الحكايات ما يشيب لها الولدان .. قصص حدثت لكل من دخل الغرفة قبلي، قصص كنت أظن أن حدوثها مستحيل إلا في أفلام الرعب الفاشلة .. وأنا أحدق فيه غير مصدق.

- طب ولما انتا عارف كل ده ليه سبتني أبات فيها ومقلتليش.

- والله انا لاقيتك جاي تعبان وعايز تبات ليلة، قلت يعني .. يمكن ولاد العفاريت دول ميعملوش معاك حاجه، دنتا جاي ليله وماشي .. !!!

- لا ياراجل.. لا صح كان المفروض يوجبوا معايا الليلادي.. اما معندهمي ذوق صحيح..

ونمت ليلتي وأنا جالس على أريكة البدين إلى بزوغ الفجر.. ثم تحاملت على نفسي إلى المحطة واستقللت أول قطار إلى الإسكندرية.. ونمت فيه بدون إزعاج من ولاد العفاريت.

●●●

obeikandl.com

دمعتي الأخيرة

- أنتِ – ١٩٨٢

شعور غريب ذلك الذي اجتاحني وأنتِ بين يديّ للمرة الأولى في حياتي.. أنا أب!!

في البداية لم أدرِ ماذا أفعل لم أتمكن من حملِك.. كنتِ صغيرة جدًّا.

أصغر مما يجب.

خشيت أن أكسرك .. تخيلي!

وبمجرد أن تغلبت على خوفي وحملتك حتى بدأتِ في الصراخ.

صراخ متواصل لدرجة جعلتني أظن أنني قد حملتك بطريقة خاطئة، وهمّت المرضة بأن تأخذكِ من يدي..

لولا أن بدأ صراخكِ يهدأ بالتدريج.. وبدأت ألاحظ ملامحك التي تشبهني.

- هيا لسه ملامحها بانت يا أستاذ.

قالتها الممرضة في تهكم ضاحكة، ولم أبال بتهكمها.. قلت لها:

- لا انا عارف انها حتطلع شبهي.. هيا شبهي.

كان يومًا مثيرًا..

لم أكن أعلم أنك ستأتين إلى الحياة في هذا اليوم، ولكني كنت أشعر بمجيئك،

صدقيني أو لا تصدقين، أنا فعلاً شعرت بمجيئك في هذا اليوم بالذات ..

قضيت اليوم بأكمله في مكتبي بالوحدة بطوسون.. انتظر أن تهاتفني حماتي لتزف لي البشري.

فقد كنت سمحت لوالدتك بالمكوث عندها في آخر شهر من الحمل،

فالرجال يا عزيزتي لا يُحسنون التصرف في مثل تلك الأمور،

ولم أعلم حتى الآن لمَ أحسست في هذا اليوم أنه اليوم الموعود.

كان يوم خميس، أتذكره جيدًا..

وبالفعل هاتفتني حماتي وقالت بأن والدتك جاءها المخاض وهي الآن موجودة في المستشفى الألماني.

هرولت إلى هناك حتى إنني لم أبال بأخذ إذن من قائدي بالمغادرة، وكلفت أحد زملائي بذلك.. وكان حظي جيداً أن قدّر القائد موقفي- فيما بعد - ولم يحاسبني على سهوي.

وعند وصولي كنتِ قد جئتِ إلى الحياة .. وقاموا بتحميمك، وفي اللحظة التي حملتكِ فيها انتابني شعور متناقض لم أدرِ كنهه فقد كنتِ جميلة جدًّا.. صغيرة جدًّا..

فكرة أن تحمل بين يديك جزءًا منك.. بالمعنى الحرفي للكلمة، **قطعة من اللحم النيئ.**

هذا أول مصطلح جال بخاطري وقتها، فابتسمت لسخافته بالرغم مني..

سلّمتك للممرضة كي تقوم بوزنك.

وتذكرت يوم أن تزوجت من والدتِك.. درة قلبي وحبيبة روحي.. وشريكة حياتي..

أنت تشبهينها هي.. وليس أنا.

كيف لم ألاحظ ذلك من قبل؟

رقيقة مثلها.. ستحملين حتمًا ذات الوجه الصبوح وذات الابتسامة المشرقة التي تؤنس على حياتي وتنير الليالي المظلمة على قلبي.

يوم أن تزوجتها كنت في الواحد والثلاثين من عمري .. وكانت وحدتي وقتها في الإسكندرية .. طوسون.

وقد حددنا موعد الزواج ليوافق الحادي عشر من شهر أكتوبر ..أتممنا كل شيء.

.. حجزنا القاعة وعزمنا المعازيم وكان كل شيء ميسراً.. كان المقرر أن تبدأ إجازتي من يوم السابع من أكتوبر ولمدة خمسة عشر يومًا.

وما إن جاء يوم السادس من أكتوبر حتى فوجئنا في الوحدة برفع درجات الطوارئ لدرجته القصوى.

لم نكن نعلم ما الذي يحدث ..

علمنا بعدها أن الرئيس السادات تم اغتياله، وطبعًا مُنعت الإجازات..

كدت أجن..

والفرح؟؟ والاستعدادات؟؟

لك أن تتخيلي.. حتى إضاءة الأنوار في الشوارع أو استعمال الميكروفونات بات محرمًا طوال مدة الحداد..مات رئيس الجمهورية!!..

أضيفي لذلك وجود خلافات شخصية بيني وبين القائد الذي كان موجودًا آنذاك، كنت أنا بالنسبة له شخصًا غير مرغوب فيه تمامًا.

انتظرت إلى يوم الزواج.. يوم الحادي عشر.

دخلت له لطلب الإجازة..

طبعًا قال بنفاد صبر إن الإجازات ممنوعة وإن البلد في حالة طوارئ –وكأنني لا أعلم المعلومة العظيمة.

- هو انت شايفني انا روحت بيتنا؟
- يافندم دنا حتجوز.
- وانا مالي أجّل الجواز.
- يافندم مينفعشي.

صرخ في وجهي:

- جرى إيه ياميلاد مش عاوز كلام كتير ..

خرجت غاضبًا من مكتبه.. وهنا اقترح علي بعض الزملاء التوسّط بيني وبينه.

وبعد محاولات عديدة ونقاشات اقتنع.. ويا ليته ما اقتنع.

- خلاص تمشي النهارده بعد الضهر وتيجي بكرة الصبح!

لم أحاول المناعة بالطبع، فهذا أقصى ما أمكنني التحصل عليه.

وبالفعل أقمنا الفرح على أضيق الحدود .. تم إلغاء القاعة، وأقمناه بالمنزل دون أضواء أو مظهر من مظاهر الفرحة.. في حين تبرع زملائي من الجيش وزملاء - عم والدتك - والذي كان أحد أفراد الشرطة أيضًا.. بحراسة الفرح!

كي لا نتعرض لأي مضايقات .. كان عُرسًا تحت حراسة أفراد الجيش والشرطة!

وبالفعل أُنجز الحفل بسرعة .. وكأنه مهمة سرية.

ومضت الليلة على خير.. ولكنني اضطررت في تمام السابعة من صباح السابع من أكتوبر إلى الذهاب لوحدتي حسب الاتفاق مع هذا الغليظ..

ذكريات مرت كشريط في مخيلتي وكأن بيني وبينها أمدًا بعيدًا.. نظرت لكِ بعد أن قاموا بوزنك وأرجعوك عصفورة صغيرة بين يدي الكبيرتين.

لم أبذل جهدًا لإخفاء تلك الدموع التي نزلت منهمرة وبللتك.. وسط نظرات الشفقة والحنان لكل من كانوا حولي، ولكني لم أكن أكترث إلا لكِ أنتِ .

كنت أحمد المولى في سري على نعمة وجودك وأدعوه أن يديمكِ نسيمًا يرطب حياتي.. وأنا أشعر - لأول مرة في حياتي - بالمسؤولية الجادة.

فها أنا أصبحت مسؤولاً عن تنشئة كائن آخر.. كائن رقيق ضعيف، وإن ظل على ضعفه وورث عني رقة المشاعر وطيبة القلب لن ترحمه الأيام..

وقتها قررت قراري .. الذي كنت أنويه منذ أن عرفت أن أمك حامل فيكِ،

أنا لن أضعف أبدًا بعد اليوم .. لن أتأثر بأي شيء، سأكون مثلما كان أبي، لن ترى دموعي النور ثانية.

لا..

ليس بعد أن جئتِ إلى الحياة.

أستطيع أن أتغير.. أن أملك زمام نفسي جيدًا، غير أني لم أجد دافعًا من قبلك يحملني على هذا التغيير.. حرصت أن تريني ذاك الرجل القوي الذي لا يتأثر لأمر ولا يدع لعواطفه العنان.

سأربيك على القوة والكبرياء، لن أسمح لكِ بالبكاء .. سأجعل منكِ فتاة كالرجل في قلبها، تهابها المصائب وتتحدى بعزتها تحوّل الأيام.

كنت أخاطبك دون أن أتكلم.. وكنتِ تنظرين إليّ وكأنكِ تسمعين.

عاملتك بقسوة وأجبرتكِ أن تتخذينها شعارًا لكِ.

وكنتِ في البداية تسايرين إرادتي ظاهريًّا.

ثم بدأتِ تتطبعين وتقسي مشاعرك تدريجيًّا.. وبدأ التبلد يزحف بداخلِك ليجنّب كل ما هو جميل ويحل محله.. وإن كنتِ في مرات تثورين وتغلبكِ عفويتك ورقتك وطبيعتك...

وكان يوم الصفعة من تلك المرات القلائل.

أقرّ بأنني كنت مخطئًا.

وما أردت إلا أن أعتذر عما بدر.. عن سنوات طوال من الجفاء ..

أعلم أنه لا عذر لي فيما فعلت بك.. ولكن صدقيني يا عاليا، لم يكن هذا أنا .. كان خوفٌ عليكِ من الأيام وحسب..

سأقولها لكِ.. انسي ما كان مني.. انسي كل ما تربيتي عليه من غلاظة القلب،

وابكي..

أخرجي ما في قلبك واتركي لعيونك العنان كي تذرف ما شاءت من دمعات طاهرات تغسل بها روحك وتبعثك من جديد.

آسف إن ينفع الأسف.

فدموعك ليست ضعفًا.. وإنما فرصة جديدة تولد منها عزمتك وإرادتك بعد المصاعب والمحن.. هوني على نفسك وعيشي الحياة على طبيعتها.

عيشيها بتقلباتها كما خلقها المولى وواجهي مصاعبها بقلب جريء.. جريء لكنه يتأثر.. ويفرح ويبكي وينتصر وينهزم، فلسنا قومًا من حديد.

وتقلباتها تلك قد قدرها الخالق لحكمه في ملكوته، فلتبحثي عن الأسباب عندما تترفعين عن الصغائر وتنظرين للأحداث من أعلى .. ستتمكنين من رؤية المشهد ككل.

أقدار الله لا مرد لها .. ولله حكمة في كل ما يمر عليكِ .

أنتِ فقط أضعف وأصغر من أن تدركيها في حينها ، ولكن ثقي بأن الله هو الحكيم العليم المدبر للأمور.

فلا تحبسي نفسك وحلقي في الأفق يا صغيرتي.

فأنا.. كنت أعيش في رغد العيش في صغري لم أتوقع من الحياة أن تنقلب حياتي رأسًا على عقب وأن تنفصل أمي بعد كل تلك السنوات..

وأن يحرمني أبي من كل ما يملك عقابًا لنا على ما اقترفت.

أن أجد نفسي مطالب في سن صغيرة بأن أتكفل بأمي وإخوتي.. ونفسي

ولم أتوقع أن أجد نفسي في القاهرة الكبرى غريبًا .. وحيدًا..

أشعر بأن العالم قد أظلم من حولي .. حتى إجازاتي من المعهد كنت أقضيها وحيدًا..

ولكنني – يا صغيرتي – لم أستسلم قط.

لم تهزمني الحياة .. تخرجت من معهدي وتدرجت في مناصب الجيش .. كنت أتنقل حسب توزيعي تارة في أسوان وتارة في الإسماعيلية وتارة في الإسكندرية وتارة في البحر الأحمر..

واستطعت أن أدخر مبلغًا لا بأس به استغليته في فتح مشروعي التجاري الخاص .. آمنت بنفسي وبقدرتي على أن أبدأ من الصفر بعد أن دارت بي الأيام.. واستطعت أن أعيد بناء أسطورتي الذاتية من جديد.

وتعلمت.

تعلمت أن اللّه لم يمنع عني إلا ليعطيني.

تعلمت أن الحياة لم تكن تقسو علي إلا كي يشتد عودي .. فتوقعي دائمًا أن تؤرجحك الحياة بين جنباتها ..

لاشيء ثابت.

لا شيء مطلقًا.

فعندما تواجهين .. تحترمك المصاعب وتتذلل لكِ عن رضا، أما إذا أنتِ هربتِ من المواجهة.. فتحملي إذلالها لكِ، فالدنيا تهاب من يواجهها وتهاجم من يهرب منها.

إذا باغتتك بوجه آخر لا تجزعي بل ابتسمي في عناد.

تلك هي الحياة.

لا تراهني عيها أبدًا..

ولا تأمني مكرها أبدًا ولا تطمئني لها.. ومع هذا عيشيها بحب، فلا تميلي كل الميل.. كوني متوازنة.. كوني سوية.

اسمحي لدمعتك أن تهرب في غفلة منك ثم استجمعي شتاتك وواجهي من جديد.

فهذا العالم كئيب إن عشتيه بقلب من حديد.

أنتِ رأيتِ أباك في قوته وبأسه وماله وتجارته.. رأيتِ المشهد من الخارج ولكنك لم تري الكواليس ..

أتعلمين؟ أنا لا أدرِ حقًّا لم كتبت لك تلك المذكرات!

لأنهيها ببضع نصائح أكفّر بها عن خطأ تربيتي؟ أم لأجعلك تتصفحين بضع دمعات قد لا يعنوا لكِ الكثير؟ لا أنتظر منكِ أن تتأثري بهم .. وقد يراهم قارئهم أمر يسير هين.. وقد يبكِ البعض أضعافهم ولأسباب أكثر سوداوية أو أكثر منطقية.

ولكنها تعني لي الكثير.. تلك هي دمعاتي.. ولحظات ضعفي وانكساري.

أردت أن أبثها لكِ.. وأن أفتح مجالاً للود بيننا.. هل سأفلح في كسب صداقتِك يا عاليا أم أنه فات الأوان؟

لا أدرِ أيمد الله في عمري حتى أراكِ في إجازتك القادمة وأسلمك عربون صداقتنا هذا طابعًا قبلتي بين عينيك أم أن أمك ستتولى عني الأمر.

كل ما أعرفه أني أحبك وأتمنى أن يصل لقلبك ما في هذا الشيء من رسائل..

أبيك الضعيف من دونك.

ميلاد عبد الصبور عبد..

«اطمن .. الرسايل وصلت»

تمتمت بها شفق .. ولم تستطع أن تتبين الاسم الثالث من أثر تلك البقعة الصغيرة التي احتلت مكانًا على الورقة، فبللت الحبر وضيعت الكلمة..

تحسست البقعة .. ثم تحسست بحركة تلقائية وجنتيها، فإذا هما مبللين

دموع!! قالتها في خفوت ثم لم تلبث أن صرخت بانفعال جارف.

إيه؟؟؟ أنا بعيط؟؟

صرخت بالكلمة في فرح تشوبه الدموع التي تفجرت من عينيها وكأنما تتحرر من سجن طويل .

أصبحت تبكي وتضحك بصوت عال في آن واحد..

إحساسها كان مناقضًا لإحساسها بنفس الدمعة هناك في الجزيرة..

لم تشعر أنها مُهانة..شعرت أنها إنسانة.

لا تعلم كيف وصل هذا الكراس لحديقة فريال ومن ثَم ليدها، أيكون مثلاً طلبة ما زال يعيش هناك؟ أم أن عاليا هي من تعيش هناك.. أم هي الأم مثلاً أيكون قد سقط من أحدهما سهوًا أم تركه عن عمد..

لا تعلم ولا يهم كل ما تعلمه وتشعر به بأن هذا الكلام كان موجهًا لها مباشرة.. أن إرادة الخالق أرادات لها أن تتحصل بالصدفة على ذلك الكراس لترافقها تلك السطور في ليلتها ويكون فيها شفاؤها من داء الهروب وأنفة الكبرياء.

عندما أدركها ذلك الخاطر..

شعرت للحظة ما بالتوازن.. وبأن هناك قوة كبرى مدبرة لهذا الكون الفسيح، قوة أرادت ألا تتركها وحدها وهي في أكثر لحظاتها ضعفًا وإكسارًا..

في تلك الأثناء كانت الباخرة قد قاربت مشارف مدينة الأقصر .. ولكنها توقفت قليلاً .. ربما لتزاحم المرسى هناك.

وقد قاربت الخامسة والنصف صباحًا وبدأت شمس الشروق تنبعث من جديد من رحم النهر..

أرادت لليلتها الأخيرة أن تكون كأكمل ما يكون .. وربك أراد أن يكون لروحها المضطربة فيها ميلادًا جديدًا،

والميلاد.. ليس شرطًا أن يقابلك إثر حدوث أمر جلل في حياتك أو هزة عنيفة تعصف بك.

فالبدايات الجديدة تأتيك دائمًا من حيث لا تدري وعلى أهون الأسباب.. الروح التي تسكنك – عكس الجسد – لا تنتظر الأسباب المادية أو الحسابات الواقعية المنطقة لتجد متنفسها .. لأنها تتعلق بالسماء .. وتنتظر منها أي علامة لتحيا في ملكوتها الخاص.

فبآية يفتح الله عليك فتتفرس معانيها، أو بكتاب يمس شيئًا هناك في باطن روحك، أو بمكان يعيد إليك بريق عينيك، أو بكلمات قلائل من أحدهم .. قد يُكتب لك الميلاد الجديد، السعيد حينما تيأس من حياتك التعسة وتسأمها وتسأمك، تأتيك تصاريف الأقدار تزيل عنك الغم وتحيي روحك وتمحو غشاوة القنوط من قلبك.

لتعيد إليك براح الحياة.

فاسجد لرب الروح وسبّح للتجلي.

توضأت وصلت صلاة الضحى بدموع لم تعهدها في صلاتها قط، قبل أن تتجه لشرفتها من جديد وتضغط زر الـ play في الـ I pod وتفصل عنه سماعات الأُذن فينساب الصوت الفيروزي ليملأ الغرفة كلها بدفئه.

أُوْمِنْ أنْ خَلْفَ الريحِ الهوجاءِ شفاهْ .. تتلو الصلاه

أُوْمِنْ أنْ في صمت الكون المُقْفَلِ .. من يُصغي لي

إنّي إذْ ترنو عيناي للسماءْ .. تصفو الأضواءْ ..

تعلو الألحانْ

كلي إيمـــان.

نظرت للجهاز الصغير مأخوذة.. حتى كلمات الأغنية توجه لها رسالة روحية معينة .. ابتسمت وأغمضت عينيها لتتمتع بذلك الشعور الخفي بأنها تولد من جديد.

يتسرب إلى أذنيها صوت إبحار حثيث فتفتح عينيها من جديد لترى أمامها مركب صيد متواضع يتهادى ببطء يجلس داخله صاحبه بجلبابه الأبيض الناصع يتقاسم الشاي مع زوجته.. وهو يضع إحدى ذراعيه على كتفها ويضمها إليه في حنان ، بينما يمسك الشاي بيده اليسرى .. أما هي قد اختبأت بجسدها كله بداخله وهي تمسك كوب الشاي بطرفي إصبعين فقط .. وكأنها استغنت عن الدفء الذي يمكن

أن يتسرب إليها من الكوب في تلك الساعة المبكرة .. واكتفت بدفء روحها فيمن يجاورها..

كانا يتضاحكان لدرجة جعلتهما لا يلاحظان تلك المتطلعة إليهم من عليائها في الباخرة الضخمة التي يمران ملاصقين لها..

مرَّا بجانب شرفتها .. حتى إذا تسلل إلى مسامعهما الصوت الفيروزي نظرا تجاه الصوت لحظة ليجدا تلك التي تقف هناك تراقبهم في فضول .. تطلعا إليها لحظات ثم لم يلبثا أن أدارا وجهيهما إلى ما كانا عليه ولم يولياها اهتمامًا يذكر..

ظلت تراقبهم في تعجب إلى أن ابتعدا فأخذت نفسًا عميقًا حبسته في صدرها للحظات قلائل وأخرجته زفيرًا بطيئًا ..

كادت تدير عينيها عنهما حين لاحظت ذلك الطائر الجميل الرشيق الذي يطلق جناحيه غير بعيد عن مياه النهر.. وقد ركز ناظريه على المياه الصافية .. لم تدر لم ظلت تنظر إليه وتركز ناظريها معه في المياه لا تعلم إلامَ ينظر..

وقف الأخير لحظات في الجو وكأنه رأى شيئًا بعينه ثم لم يلبث أن أخذ دورة كاملة حول تلك النقطة ثم انقض على هدفه بدقة يحسد عليها.. ودس منقاره الطويل في الماء والتقط به شيئًا ما عله سمكه صغيرة ..

أخذ صيده الثمين بشغف وانطلق به محاذيًا المياه.. وتابعته هي بنظرها، إلى أن وصل إلى حاجز حديدي قريب لباخرة أخرى مجاورة ينتظره عليه طائر شبيه له.. من نفس فصيلته التي تجهلها.

ثم قام الطائر الصياد بإطعام السمكة للطائر الآخر الذي خمنت أنها وليفته في فمها .. أبعد كل هذا التعب يعطيها صيده الثمين هكذا بكل بساطة ورضا؟

لا تعرف لم أحست بسعادة الطائرين بالرغم من أنها لم تعلم إلى أي فصيلة ينتميان.

حولت نظرها عنهما سارحة في المرور الهادئ البطيء لمياه النيل بجانبها

البساطة تنتصر إذن...

فبذلك الكون دائمًا أرواح هائمة تستمد السعادة من ذاتها .. وليس من المؤثرات التي تحيطها ..

في تلك الحياة من هم يصنعون السعادة من أبسط الأشياء في ذاتهم امتدت يديها للهاتف وكأنها أدركت ما عليها فعله.

ضغطا زر جانبيًّا لتضيء شاشته من جديد.. ظلت تنظر للشاشة في صبر وثقة تعلو شفتيها ابتسامة حانية.. وما هي إلا ثوان حتى ظهر على الشاشة ما كانت تنتظره ..

رسالة نصية من شركة المحمول تفيد بأنه قد فاتتها ١٨ مكالمة من سامح في أوقات مختلفة آخرها من ربع ساعة! ثم صدر من الجهاز صوت ذلك الأزيز المميز لرسائل تطبيق الـ whats app

فتحتها التطبيق في لهفة لتجد أربعة رسائل متتابعة:

Same7
today at 3:23 AM
11:01 PM
شفق. كيف ظن قلبُكِ بي أن أكون فيكِ من الشامتين؟؟ أنتِ شقيقةُ روحي وقرةُ عيني...
إبنةُ قلبي الصغيرة المدللة التي لا أعلم أنني حيٌ أُرزق إلا بين يديها
12:45 AM
Type a message

Same7
today at 3:23 AM
12:45 AM
أتوسل إليك لا تتركيني
عودي وأعدك أن أكون الرجل الذي تتمنين سأكون
لك أخا ..صديقا.. زوجا . أنا مستعد لأي صفة.
كوني فقط بجانبي ياحُمرة الشفق
2:16 AM
Type a message

Obeikandi.com

كانت تقرأ ودمعاتها تنهمر لتبلل وجهها كله .. وتبلل الشاشة أغلقت التطبيق وبحثت في سرعة عن رقم مدير الباخرة وضغطت زر الاتصال:

- صباح الخير.. معلشي بكلمك بدري، انا كنت بس عاوزه أعرف انتو راجعين أسوان بعد كام يوم.. لسه بعد تلات ايام؟ طيب تمام ترجعوا بالسلامة ان شاء الله .. ميرسي اوي.. سلام.

وأغلقت الخط .. لتبحث عن رقم صديقها بالمطار وضغطت زر الاتصال.

- صباح الخير، بخير الحمد لله، لأ مش بأكد الحجز.. كنت عاوزه أقولك معلشي تلغيلي تيكيت دبي وتحجزلي على أول طيارة طالعة أسوان ..آه.. لاغيت السفر.. أو أجلته لسه مش عارفه... الساعة عشرة؟ حلوة دي احجزلي عليها.. لا أكيد المرادي إن شاء الله.. تمام ميرسي اوي.. مع السلامة.

ما إن أغلفت الخط حتى تنهدت من قلبها تنهيده ارتياح.. وأخيرًا تشعر بأنها فعلت ما كان يجب عليها فعله.

أغمضت عينيها من جديد ..

أسرت إلى بارئها بأن تشرق روحها من جديد كإشراقة ذلك القرص البرتقالي الذي كان قد أكمل انبعاثه الجديد..

من خلف الجبل..

تمت

«الميلاد»

الإسكندرية- ١٤ يوليو ٢٠١٦

أمنية صلاح

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس	الصفحة

إهداء:..... ٥

إهداء خاص:..... ٧

الدمعـــــة الأولـــــى

- حكايتي مع سوق روض الفرج – ١٩٥٦:..... ٢٧

الدمعـــــة الثانيـــــة

-حكايتي مع الشيخ «براهيم ناقص الرُّبعة» – ١٩٥٧ ٣١

الدمعـــــة الثالثـــــة

-حكايتي مع مِخوَل العجل – ١٩٥٩:..... ٣٧

الدمعـــــة الرابعـــــة

-حكايتي مع السيد برعي – ١٩٦٠:..... ٥١

الدمعـــــة الخامســـــة

- حكايتي مع فيلم الخطايا – ١٩٦٢:..... ٥٩

الدمعـــــة السادســـــة

-حكايتي مع الباتعة – ١٩٦٣:..... ٧٣

obeikandl.com

الدمعـــــة السابعـــــة

-طامتي الكبرى – ١٩٦٦:..... ٨٧

الدمعـــــة التاسعـــــة

-حكايتي مع الضابط ماهر- ١٩٦٨:..... ٩٧

الدمعـــــة العاشـــــرة

-حكايتي مع محطة الرادار – ١٩٧٢:..... ١٣٣

الدمعـــة الحـــادية عشـــر

-ناصر- ١٩٧٣:..... ١٤١

الدمعـــة الثانيـــة عشـــر

-حكايتي في السيل الريفي – ١٩٧٥:..... ١٥٩

الدمعـــة الثالثـــة عشـــر

-حب في القطار – ١٩٧٦:..... ١٦٩

الدمعـــة الرابعـــة عشـــرة

-انتفاضة الخبز – ١٩٧٧:..... ١٨٥

obeikandl.com

الدمعـــة الخـــامسة عشرة

-حكايتي مع الثانوية العامة – ١٩٧٩:..... ١٩١

الدمعـــة الســـادسة عشرة

-حكايتي مع الحجرة ١٧ – ١٩٨٠:..... ٢٠٩

دمعتـــــي الأخيـــــــرة

-أنتِ – ١٩٨٢:..... ٢٢١

obeikandl.com

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر